مكسيم غوركي

مولد إنسان

وقصص أخرى

روائع الأدب العالمي

ترجمة: محمود الحسيني

telegram: @mbooks90

AL WALID

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مكسيم جوركي

مَوْلِدُ إِنْسَانٍ

وقَصَصٌ أُخْرَىٰ

ترجمة

محمود الحسيني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقديم

مبدع هذه المجموعة المختارة من القَصص هو الكاتب الروسي مكسيم جوركي، الذي يعتبره النقاد أحد رواد مدرسة الواقعية في الفن.

ولد مكسيم جوركي سنة 1868 في مدينة «نيجيني نوفجرود» على نهر الفولجا. وكان والده يعمل نجار أثاث، وقد توفي بعد إصابته بالكوليرا وهو في سن الحادية والثلاثين، وترك ابنه مكسيم وهو لم يتجاوز الثالثة من عمره. وبعد وفاة الأب تركت الأم صغيرها في كفالة جده ورحلت بعيداً. وكان الجد بطبيعته متشدد النزعة الدينية ومستبدًّا وبخيلاً أذاق الصغير الأَمَرِّين. إلا أن الجدة كانت حانية عليه، وكانت ذات موهبة في سرد الحكايات، وساعدت هذه الموهبة في شحذ خيال مكسيم الصغير وإذكاء ملكاته الكامنة. وطموحه الذاتي كقصاص. وبعد وفاة الجدة متأثرة بمرض السل سنة 1879، بدأت مرحلة جديدة في حياة الفتى مكسيم، فخرج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى ميدان الحياة وهو ما زال في الحادية عشرة من عمره، يسعى إلى كسب عيشه. وكان أول عمل له هو مسح الأحذية. ثم هجر ذلك العمل، واشتغل غاسلاً للأطباق في باخرة نهرية سياحية، وفيها صادق الطاهي «سموري»، وشجعه على قراءة الكتب، بعد أن أعاره بعضاً منها، فعكف على القراءة بجد في وقت متأخر من الليل، وأضحت القراءة عنده مبعث شغف كبير، وهكذا تولى تعليم نفسه بنفسه.

وكانت أول نقلة كبيرة في حياته سنة 1884 حينما ارتحل إلى «كازان» على أمل أن يدرس في جامعاتها. وفي «كازان»، وعلى الرغم من أنه اضطر إلى العمل وكسب قوت يومه، فقد تهيأ له أن يحتك لأول مرة بالمثقفين فيها ممن شحذوا مشاعره الاجتماعية. ثم غادر «كازان» وأخذ يتنقل في أرجاء مصب الفولجا ومناطق بحر قزوين. وفي أثناء ذلك قُبض عليه أكثر من مرة، بسبب اتصاله بالشباب من ذوي الميول الثورية والمعادين لحكم القيصر.

وفي عام 1891 خطا جوركي خطوة هامة أدنته من بلوغ مكانته بوصفه كاتباً كبيراً؛ فقد بدأ رحلة للطواف والتنقل في جنوب البلاد عاش خلالها كجوَّاب آفاق، ومارس أدنى الأعمال في المزارع وفي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموانئ البحرية وفي القرى والمدن المختلفة، واختلط بشذاذ الآفاق والعمل والمتشردين والفلاحين الجياع. وفي مدينة «تفليس» نجح في نشر قصته الأولى «ماكارا شودرا» التي يضمها هذا الكتاب. وتوالت بعد ذلك قصصه الأخرى مثل: «تشيلكاش» و«الخطيئة الطافية» و«كلنا وحوش». واستطاع فيها أن يوجد توازناً وثيقاً بين الرومانسية والواقعية، وهو ما ظل حريصاً عليه في كل قصصه ورواياته التالية:

ولم يلبث جوركي منذ سنة 1895 أن ظفر بمكانة جعلته محور النقاش والقراءة في بطرسبورج وموسكو، خصوصاً بعدما عمل صحفيًّا في إحدى الصحف اليومية واسعة الانتشار.

وقد التقى في بطرسبورج وموسكو بكثير من مشاهير الكتَّاب والنقاد والشخصيات البارزة على رأسهم تشيكوف وتولستوي.

وفي عام 1906 وجد جوركي نفسه مضطرّاً لمغادرة بلاده، فأمضى ثماني سنوات في المنفى – ستة أشهر منها في أمريكا وبقية السنوات في إيطاليا. وفي تلك السنوات لم يغفل أبداً عن بلاده، وظلت دائماً معقد آماله وشتى انفعالاته. وتهيأ له وهو في أمريكا أن ينشر أهم رواياته وأوسعها انتشاراً على الإطلاق وهي رواية الأم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

توفي مكسيم جوركي سنة 1938، وترك لنا نحو ثلاثين مجلداً ضخماً من الروايات والقصص القصيرة والتراجم والمسرحيات والمقالات الصحفية.. ستة من هذه المجلدات تضم قصصه القصيرة ورواياته وباستعراض هذه الحصيلة يمكن القول بأن مكسيم جوركي قد وطَّد مادته الأدبية بصورة أساسية على الحياة في بلاده أيام القيصرية وأيام الثورة الروسية وما بعدها.

ولا شك أن كثيراً من قصصه القصيرة قد تجاوزت النطاق المحلي في روسيا، وأضحت بحق جزءاً من التراث الأدبي العالمي.

وإذا كان مكسيم جوركي لم يفز بجائزة نوبل للآداب، فلا شك أنه كان جديراً بالفوز بها أكثر من كثيرين حصلوا عليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مكار اشودرا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من البحر ريح باردة رطبة، حملت إلى السهول اللحن الشجي الذي كان ينبعث من الأمواج وهي تتكسر على الشاطئ، وحفيف الشجيرات الجافة، وكانت تشتد من آن لآخر، فتسقط أوراق الشجر الذابلة، وتدفع بها إلى النار التي كنا نلتف حولها لنسمر، فتذكي اللهب، وإذ ذلك، كانت ظلمة ليل الخريف ترتعد وتتراجع في ذعر ووجل، كاشفة لنا عن لمحة من المراعي الشاسعة إلى اليسار، ومن البحر المترامي الأطراف إلى اليمين.

وأمامي كان الغجري العجوز «مكارا شودرا» لا يغفل عن جياد معسكره التي كانت ترعى على بعد خمسين ياردة منا. وكان يستلقي في مواجهتي في وضع جليل مهيب، غير حافل بالريح الباردة التي كانت تفتح معطفه القوقازي، وتلفح بسياطها صدره العاري الذي جلله الشعر الأبيض... وأخذ يشد في تواتر رتيب - أنفاساً من غليونه الكبير، ثم يطلق الدخان من فمه وأنفه في سحب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كثيفة، وهو يسدد بصره فوق رأسي نحو ظلمة المراعي الساكنة، دون أن يكف عن الكلام، ودون أن يبدي أتفه جهد ليقي نفسه لفحات الريح القاسية!

وراح شودرا يقول:

- إذن فأنت تجوب العالم، ضارباً في أرجائه؟ هذا خير لك وأجدى، وقد أحسنت الاختيار أيها الصقر الصغير، فهذا هو الطريق الوحيد في الحياة.. طُفْ بالعالم واشهد كل ما فيه، حتى إذا اكتفيت، ارقد.. ومت!

وما أن سمع اعتراضي على قوله: هذا هو الطريق الوحيد في الحياة، حتى هتف متسائلاً:

- الحياة؟ رفاقك وأقرانك؟ لِـمَ تشغل بالك بهذه الأمور؟ أو لست أنت الحياة ذاتها؟ أما رفاقك وأقرانك فقد اعتادوا أن يمضوا في الحياة، وسيظلون يمضون فيها قُدماً بغيرك. أتظن حقًّا أن هناك من هو بحاجة إليك؟ إنك لست خبزًا يؤكل؟ ولا عصا يتكأ عليها؟ .. ولهذا فليس هناك من يريدك! إنك تقول: نعم .. تعلم وعلم الغير.. فهل بوسعك أن تتعلم كيف تسعد الناس؟ لا، ليس هذا بوسعك. ولن تتمكن من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السعي لتعليم الآخرين قبل أن يشيب شعرك.. وما الذي ستلقنهم إياه عندئذ؟ إن كل إنسان يعلم ما هو بحاجة إليه، والعقلاء من الناس يقنعون بما تقدمه لهم الحياة.. أما الأغبياء، فلا يأخذون شيئاً.. ولكن كل إنسان يتعلم بنفسه!

إن الناس مخلوقات غريبة، فهم جميعاً يتزاحمون، ويدوس الواحد منهم الآخر، في الوقت الذي يوجد فيه كل هذا الفراغ الفسيح.. ولوّح بيده مشيراً إلى البراري الشاسعة، ثم تابع الحديث قائلاً:

- وكلهم يعملون.. لماذا؟ لا أحد يعرف.. كلما شاهدت شخصاً يحرث حقلاً، حدثت نفسي قائلاً: ها هو شخص يريق وقته وعقله على الأرض، قطرة بعد قطرة، لا لشيء إلا ليرقد في هذه الأرض ذاتها في النهاية، ويتحلل. وسيموت وهو على ما ولد عليه من جهل وغباء، دون أن يترك شيئاً وراءه، ودون أن يرى شيئاً غير حقله.. أفهذا هو ما خُلق لأجله؟ هل ولد ليحفر في الأرض دون أن يجد فسحة من الوقت ولو ليحفر لنفسه قبراً؟ هل ذاق الحرية مرة.. هل عرف شيئاً عن سعة هذه البراري؟ من يوم مولده إلى يوم مماته!! فهل في وسعه أن يفعل شيئاً إزاء هذه؟ لا.. إنه لا يملك سوى أن يشنق نفسه إذا وجد في نفسه الشجاعة ليفعل ذلك!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما أنا - وقد بلغت الثامنة والخمسين - فقد رأيت ما إذا سجل على الورق لما وسعته مائة حقيبة كتلك التي نحملها. هل في إمكانك أن تذكر اسم أرض لم أرها؟ لا يمكنك! بل إنني ذهبت إلى أماكن لم تسمع بها قط، وهذا هو السبيل الوحيد للحياة..

تنقَّل من مكان إلى آخر، ولا تبق طويلاً في مكان واحد، فليس ثمة ما يدعو إلى إطالة البقاء .. يكفيك أن ترى توالي النهار والليل في حركة دائمة يطارد أحدهما الآخر حول الأرض بالطريقة ذاتها التي يتعين عليك أن تطارد بها أفكارك إذا أردت ألا تفقد الرغبة والمتعة في الحياة.. فإن الإنسان خليق بأن يفقد هذا الاستمتاع إذا ما غالى في الاهتمام بالحياة. لقد فعلت أنا هذا مرة.. أجل فعلت ذلك أيها الصقر الصغير.. كان ذلك عندما أُودعتُ السجن في «جاليسيا». فقد رحت في غمرة التعاسة أسأل نفسي: لماذا ولدت؟ إنها لتعاسة كبرى أن تحبس في سجن.. آه، يا له من شقاء! لقد كان قلبي يعتصر عصراً كلما أطلت من النافذة على الحقول المكشوفة المنبسطة.. مَنْ ذا الذي يستطيع أن يقول: لماذا ولد؟ لا أحد، ومن ثَم فلا ينبغي للمرء أن يطرح على نفسه هذا السؤال.. بل امض في الحياة، وكن شكوراً، لأنك حي.. اضرب في أرجاء الأرض،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وشاهد ما يستحق المشاهدة، وبهذا لن تشعر بالتعاسة.. ولكنني كدت في تلك المرة أن أشتق نفسي بحزامي!

ولقد حدث أن تحدثت ذات مرة إلى شخص معيَّن.. كان رجلاً رزينًا متزنا، روسيًّا مثلك. فقال لي: إن المرء لا ينبغي أن يعيش كما يحب، وإنما كما أشير عليه في كلمة الله، فإذا ا عاش المرء مطيعاً لله، أعطاه الله كل مطلبه. وكان هذا الرجل يرتدي أسمالاً بالية، فسألته أن يطلب إلى الله أن يعطيه ملابس جديدة، فغضب مني ولعنني وطردني، وهو الذي كان يقول لي - قبل ذلك - بدقيقة واحدة - إن على المرء أن يحب جيرانه ويغفر لهم.. فلم يغفر لي إن كنت قد أهنته. هذا هو طراز أولئك الذين يعظونك.. إنهم يعلّمون الناس أن يقتصدوا في الأكل، في حين أنهم - هم بالذات - يأكلون عشر مرات في اليوم!

***

وبصق الغجري على النار، ثم أخلد إلى الصمت وهو يحشو غليونه بالتبغ، وأخذت الريح تئن في خفوت، وصهلت الجياد في الظلام.. وترددت في الجو نغمات حزينة، حملتها الريح من معسكر الغجر.. كانت «نونكا» ابنة «شودرا» الحسناء تغني. فقد كنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعرف نبراتها العميقة، وصوتها الذي تشيع فيه دائماً لهجة تنمُّ عن سخطها وعدم الرضا سواء وهي تغني، أو وهي تنطق بمجرد تحية مقتضبة!.. وكان كل ما تراه في أية ملكة من الملكات، يظهر متجسماً على قسمات وجهها.. كما كان شع في ظلال عينيها السوداوين وميض يوحي بشعورها بجمالها الطاغي، وبسخطها على كل شيء عدا نفسها!

وناولني «مكارا» غليونه قائلاً:

- هل تريد أن تدخن؟.. إنها تجيد الغناء، أليس كذلك؟ أتحب أن تظفر بفتاة تبادلك الحب كهذه؟ لا.. هذا خير لك إذ لا ينبغي أن تثق بامرأة.. ابتعد عنهن.. إن المرأة تجد لذة في تقبيل الرجل، تفوق ما أجد أنا في تدخين غليوني.. ولكنك تفقد حريتك بمجرد أن تقبلها مرة واحدة، لأنها تقيدك بقيود خفية لا فكاك منها، فتضطر إلى أن تعطيها نفسك قلباً وقالباً.. هذه هي الحقيقة، فاحذر النساء.. إنهن كاذبات، تقسم الواحدة منهن على أنها تحبك أكثر من أي شيء في الحياة، حتى إذا آلمتها مرة - ولو بوخزة إبرة - مزَّقت قلبك تمزيقاً.. إنني متيقن مما أقول، لأنني أعرف أشياء كثيرة، وسوف أقص

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليك - إذا شئت - قصة واقعية، فتذكرها جيداً، لأنك إذا فعلت ظللت طول حياتك حرًّا كالطير!

حدث ذات مرة

حدث ذات مرة أن كان هناك غجري يدعى «زوبار».. «لويكو زوبار»، وكان شابًّا جريئاً لا يعرف الخوف سبيلاً إلى نفسه، وقد ذاع صيته في المجر، وامتد إلى بوهيميا وسلافونيا، وجميع الأقطار المحيطة بالبحر.. ولم تكن في هذه الأقطار قرية لا تضم على الأقل أربع رجال أو خمسة أقسموا على قتل «زوبار»، ولكنه لم يصب بأذى، بل ظل على قيد الحياة.. فإذا تاقت نفسه إلى جواد، فما كانت فرقة كاملة من الجنود تستطيع أن تحول بينه وبين امتطائه والعدو به. لم يكن يخشى أحداً! لا، لم يكن «زوبار» يخشى أحداً، بل إنه كان قادراً على أن يسلخ الشيطان نفسه وكل أفراد زمرته، لو سوّلت لهم أنفسهم أن يعترضوه، أو على الأقل كان يلعنهم جميعاً ويصفعهم.. صدقني.. ولقد كانت جميع معسكرات الغجر تعرف «زوبار» أو - على الأقل - سمعت عنه.. ولم يكن يحب في الدنيا شيئاً غير الجواد، ولكن حبه لم يكن ليدوم طويلاً، إذ كان لا يلبث أن يضيق به فيبيعه، ويهب الثمن الذي يتقاضاه في مقابله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأي شخص يطلبه.. لم يكن ليبخل بشيء على أحد، بل إنه لم يكن يحجم عن أن ينتزع قلبه من صدره، لو ظن أن هناك من يحتاج إليه.. هكذا كان «زوبار»..

وحدث في ذلك الوقت الذي أحدثك عنه - أي منذ نحو عشر سنوات - أن كانت قافلتنا تطوف بإقليم «بوكوفينا» وكان بعض أفراد منا يجلسون معاً في إحدى ليالي الربيع، وبينهم «دانيلو» الجندي الذي قتل تحت قيادة «كوسوت».. و«رادا» ابنة «دانيلو».. هلي رأيت ابنتي «نونكا»؟ إنها ملكة بين الجميلات الفاتنات، ولكنها مع هذا تحظى بشرف عظيم إذا قورنت بـ «رادا» التي كان جمالها يجل عن الوصف! ربما تسنى تصويره بأنغام الكمان، على أن يكون العازف قديراً يعرف دقائق الآلة معرفته لنفسه!

ولقد راح كثيرون من الرجال ضحايا حب «رادا». وحدث مرة في «مورافيا» أن صعق ثري متقدم في السن عند رؤيته لها، فتسمر مذهولاً على ظهر جواده، لا يتحرك، ثم راح يهتز من إخمص قدميه إلى قمة رأسه، وكأنه مصاب بالحمى.. وكان الرجل في أكمل زينة، وكأن إبليس في إجازة.. فمعطفه الأوكراني الطراز موشى بخيوط من ذهب، بينما تدلى على جانبه حسام مرصَّع بأحجار كريمة، كانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تتألق عند كل حركة من الجواد، وكأنها ومضات برق خاطف.. وكانت قبعته مخملية زرقاء بلون السماء. لقد كان هذا العجوز من علية القوم.. ولقد ظل جالساً على ظهر جواده ينظر إلى «رادا» كالمشدوه، وأخيرا استطاع النطق فقال لها:

- إنني أعطيك كيساً ممتلئاً بالنقود في مقابل قبلة واحدة!

فحوّلت نظرها عنه، مما جعله يغيّر لهجته ويقول:

- اغفري لي إذا كنت قد أهنتك، ولكن لعلك تمنحينني ابتسامة على الأقل!

وألقى بكيس النقود عند قدميها، وكان كيساً منتفخاً، ولكنها اكتفت بأن داسته بقدمها حتى غاص في التراب، وكأنها لم تره!

فصاح الرجل:

- يا لها من فتاة!

ثم ساط الجواد، فقفز وأثار موجة كثيفة من الغبار وهو يعدو بصاحبه بعيداً عن الفتاة!

وعاد الرجل في اليوم التالي، فسأل في صوت دوَّى في أرجاء المعسكر عمن يكون والدها .. وإذا انبرى له «دانيلو»،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال له الرجل:

بعها لي، واذكر الثمن الذي يروق لك!

فقال «دانيلو»:

إن النبلاء فقط هم الذين يبيعون كل شيء - من الخنازير إلى ضمائرهم - أما أنا فقد قاتلت تحت إمرة «كوسوت»، فلست أبيع شيئاً..

فزأر الرجل الثريُّ ومد يده إلى حسامه، ولكن أحد رجالنا ألقى بجذوة نار في أذن جواده، فقفز في الهواء وطار بسيده. وبادرنا إلى هدم المعسكر، ونزحنا عن المكان. ولكننا بعد مسيرة يومين كاملين رأينا الرجل فجأة يأتي وراءنا ويصيح قائلاً:

أقسم بربي أن نيتي شريفة.. زوّجوني الفتاة أقسم معكم كل ما أملك، وإني لعظيم الثراء!

وكان يحترق وجداً، ويترنح على جواده وكأنه ريشة في مهب الريح.. فأخذنا نفكر فيما قال.. وما لبث «دانيلو» أن قال لابنته بصوت خافت:

ما رأيك يا ابنتي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقالت «رادا»:

- لو رأيتم أنثى النَّسر تأوي إلى عشها برفقة الغراب، وكان ذلك بمحض إرادتها، فماذا تقولون عنها؟! فانفجر «دانيلو» ضاحكاً، وضحكنا جميعاً.. في حين هتف «دانيلو»:

- لا فُض فوك يا بنيتي!.. هل سمعت يا سيدي؟.. لقد خسرت القضية، فاذهب وتودد إلى حمامة، فإنها أكثر وداعة..

وسرنا بعد ذلك في طريقنا!

وعندئذ خلع الرجل الثري قبعته وطوح بها بعيداً على الأرض. ولكز جواده، فعدا بسرعة حتى زلزلت الأرض تحت حوافره.. هكذا كانت «رادا» أيها الصقر الصغير!

***

واستطرد «شودرا» حديثه قائلاً:

- ولنعد إلى حديثنا الأول.. قلت إننا كنا في إحدى الليالي جالسين في المعسكر، وإذا بنا نسمع على حين فجأة صوت موسيقى تقترب من ناحية الخلاء.. وما كان أروعها!.. كانت أنغاماً تجعل الدم يتدافع في الشرايين، وتحمل المرء لتسرى به في عوالم مجهولة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولقد ملأتنا نشوة، وجعلنا مشوقين إلى الإقدام على عمل جليل هائل، إذا خبرناه مرة لم تعد بنا حاجة إلى مواصلة الحياة، فإذا ظللنا أحياء بعده، أصبحنا سادة العالم بأسره! وما لبث أن برز من جوف الظلام جواد يمتطيه شخص كان يعزف على الكمان، فتقدم نحونا، ووقف عند نيران معسكرنا، ثم كف عن العزف، وأخذ يتطلع إلينا وهو يبتسم.. وهنا هتف «دانيلو» مرحباً:

- «زوبار» أهذا أنت؟

كان ذلك - إذن - هو «لويكو زوبار».. وكان شارباه يتدليان إلى كتفيه، حيث كانا يختلطان بشعره الطويل المجعَّد، كما كانت عيناه تومضان وكأنهما نجمتان براقتان.. أما ابتسامته فكانت مثل إشراق الشمس في وضح النار.. وبدا هو وجواده كما لو كانا قد قُدَّا من قطعة واحدة من الصوان.. وظل واقفاً أمامنا ووجهه يلوح - على وهج النار - مصطبغاً بلون الدم، وأسنانه الناصعة البياض تلمع كلما ضحك.. والله لقد أحببته حبي لنفسي، ولو أنه لم يبادلني كلمة واحدة، ولا أحس بوجودي!

أجل أيها الصقر الصغير.. إن في الدنيا رجالاً من هذا النوع، تستسلم لهم بمجرد أن تتطلع إلى عيونهم، وأنت تشعر بالفخر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا بالخجل، لأنك تحس بأنك أصبحت - في وجودهم - خيراً مما كنت من قبل.. والذين هم على هذه الشاكلة قليلون، ولعل في ذلك خيراً، لأن الأشياء الطيبة إذا كثرت في هذا العالم لم تعد تعتبر من الطيبات.. ولكن اسمع ما حدث بعد ذلك. فقد قالت له «رادا»:

- إنك تجيد العزف يا «زوبار» ولكن هلا نبأتني عمن صنع لك هذه الكمان العذبة الصوت؟!

فضحك الشاب وأجاب قائلاً:

- لقد صنعتها بنفسي، لا من الخشب، وإنما من صدر جارية أحببتها كثيراً كما أن أوتارها من أوتار قلبها. ولا تزال كماني هذه تصدر أحياناً بعض نغمات كاذبة، ولكني أعرف عادة كيف أسيطر عليها بقَوْسي!

كان الرجل يحاول دائماً أن يسدل على عيني الفتاة غشاوة تحملها على أن تتوق إليه، لكي يحمي قلبه من سهام عينيها. ولم يكن «زوبار» يختلف في ذلك عن سواه، ولكنه لم يكن يعرف مع من وقع في تلك المرة، إذ اكتفت «رادا» بأن أشاحت عنه وقالت وهي تتثاءب:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- عجباً، لقد قالوا لي: إن «زوبار» حكيم وحصيف. يا لها من غلطة!

وسارت مبتعدة. فقال «زوبار» وقد أومضت عيناه ببريق خاطف وهو يترجل عن جواده:

- إن لك أسناناً حادة يا فتاتي الجميلة!

ثم تحول إلينا قائلاً:

- تحياتي لكم أيها الأصدقاء. لقد جئت لأزوركم!

فقال «دانيلو»:

- يسرنا أن نراك بيننا!

وتبادلنا القبلات وتحدثنا قليلاً، ثم أوينا إلى مضاجعنا، ونمنا نوماً عميقاً. وفي الصباح وجدنا «زوبار» معصوب الرؤوس، فماذا حدث له؟ بدا أن جواده ركله في الليل.. ولكننا حين عرفنا من كان ذلك الجواد ابتسمنا بيننا وبين أنفسنا، وابتسم «دانيلو» أيضاً.. ولكن هل من المعقول أن يكون «زوبار» - كسواه - غير كفء لـ «رادا»؟ الواقع أنها رغم جمالها - كانت ذات نفسية متكبرة - ولم تكن الحلي الذهبية كلها في العالم مستطيعة أن تعلي من قدرها شيئاً!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومضى «شودرا» في روايته قائلاً:

- دعنا من هذا.. لقد ظللنا نعيش في المعسكر، والظروف مواتية، و«لويكو زوبار» يقيم بيننا كخير رفيق.. كان في حكمة العجائز، غزير المعرفة، يجيد قراءة الروسية والمجرية وكتابتهما، حلو الحديث، لطيف المعشر.. وكان بوسعي أن أجلس الليل بطوله أصغي إلى حديثه المشوق دون ملل.. أما عزفه على الكمان، فلتنقضّ عليّ صواعق السماء إذا قلت إن هناك مَن يعادله في ذلك أو يدانيه.. كان إذا أجرى قوسه على الأوتار، قفزت القلوب من الصدور، فإذا عاد بها تحفزت كل جارحة في كيانك منصتة.. أما هو فكان يمضي في العزف وهو يبتسم، ولو أنك سمعته لشعرت بأنك تريد أن تبكي وتضحك في آن واحد..

فأنت تسمع في لحظة شخصاً ينتحب بمرارة، ويصرخ مستنجداً، وتحس كأن سكيناً تمزق جنبك، ثم تخال - في اللحظة التالية - أن المراعي تروي للسماء قصة.. قصة حزينة.. ولا تلبث الأنغام أن تصور لك أن غانية تبكي وهي تودع حبيبها.. وفي الدقيقة التالية، تسمع الحبيب يناديها من البراري.. ثم فجأة ينقضُّ نغم كأنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صاعقة من السماء يكاد يجعل الشمس ذاتها ترقص.. هكذا كان يعزف أيها الصقر الصغير!

إنك لتحس بأنغامه تهز كل جارحة في جسدك، وبأنك تغدو عبداً لهذه الأنغام..

وصاح «زوبار» فجأة:

- أشهروا خناجركم أيها الرفاق! ليشهر كل منا خنجره في وجه أي شخص يشير لنا نحوه.

كان في وسع «زوبار» أن يلف أي شخص حول إصبعه الصغير، ولكن الجميع كانوا يحبونه كل الحب. ومع ذلك فقد ظلت «رادا» لا تحفل به. والأنكى من ذلك أنها كانت «تتعمد السخرية منه، فأصابت قلبه بجرح.. وكان جُرحاً قاسياً.. فكان الشاب يعض على شاربه بنواجزه، وكانت عيناه تغدوان إذ ذاك أعمق من الآبار، يومض فيهما - بين وقت وآخر - بريق خاطف يبعث الرعب في القلوب.. وكان في الأمسيات يضرب في البرية، حيث يقضي الليل، وكمانه تنوح حتى الصباح.. كانت تبكي حريته المفقودة!

وكنا نستلقي، ونصغي، ونفكر فيما قد يحدث بعد ذلك..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجميعنا يعلم أنه إذا تدحرج حجران ضخمان، كل نحو الآخر، فإنهما كفيلان بأن يسحقا كل من يعترض طريقهما.. وهذا ما كانت تتجه إليه الظروف!

وفي ذات ليلة جلسنا طويلاً أمام النار، نبحث في شؤوننا، فلما تعبنا من الحديث، تحوّل «دانيلو» إلى «زوبار» قائلاً:

- غن لنا يا «زوبار» لتبهج قلوبنا!

فنظر «زوبار» إلى «رادا» التي كانت مستلقية على الأرض. في بقعة غير بعيدة، تتطلع إلى السماء، ثم جرّ قوسه على أوتار الكمان فأخذت النغمات تتدفق عذوبة، وكأني بالقوس يمس أوتاراً انتزعت فعلاً من قلب فتاة حسناء!

وأخذ «زوبار» يغني:

هيو.. هيو!

إن قلبي يلتهب،

والمراعي ممتدة كالبحر.

وجواداننا الباسلان يعدوان كالريح،

يحملاننا أنا وأنت!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهنا أدارت «رادا» رأسها إليه، واستندت على أحد مرفقيها، ثم ضحكت في وجهه ساخرة.. وتضرَّج وجه «زوبار» ولكنه واصل الغناء:

هيو.. هيو!

إن رفيقي صادق،

فساعة الفجر قد دنت..

والبراري متشحة بظلال الليل،

ولكنا سنرقى إلى السماء

فألهبي جوادك لتقابلي النهار، الذي انبثق على السهل ولكن حذارِ، حتى لا يمس عُرف الجواد وجه القمر!

وكان غناءً رائعاً، وشدوا جميلاً لا مثيل له اليوم، ولكن «رادا» دمدمت قائلة:

- لو كنت مكانك لما ارتقيت إلى هذا الارتفاع يا «لويكو زوبار»، إذ أنك قد تهوى في الوحل فتُفسد هذين الشاربين الجميلين!

ورمقها «زوبار» بنظرة حانقة، ولكنه لم يقل شيئاً، إذ استطاع أن يسيطر على أعصابه. ثم مضى مستأنفاً الغناء:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هيو.. هيو!

إذا جاء ضوء النهار، ووجدنا معاً نائمين..

فستتضرج وجناتنا بأرجوانية الحياء،

ونحن نقفز من فراشنا!

وقال «دانيلو»:

- إنها أنشودة رائعة حقًّا! ليسخطني الله غليوناً إذا كنت قد سمعت خيراً منها..

أما العجوز «نور» فقد راح يمشط لحيته بأصابعه، ويهز كتفيه طرباً. وغمرنا جميعاً الاغتباط، وأخذتنا النشوة من هذه الأنشودة الجميلة. ولكن «رادا» لم تُعجب بها. قالت:

- لقد سمعت مرة بعوضة تحاول تقليد صوت النسر!

وكأنما قذفت - بقولها هذا - وجوه الحاضرين بالثلج. فقال لها والدها:

- لعلك متشوقة إلى ضرب السياط يا «رادا».

ولكن «زوبار» ألقى قبعته إلى الأرض، وقد تجهم وجهه وأصبح بلون التراب، ثم تحوَّل إلى «رادا» وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- اهبطي أيتها الغانية من عليائك، واصغي إلى ما أقول. لقد عرفت كثيرات من الفتيات. أقول كثيرات، ولكن أيًّا منهن لم تتمكن من الاستيلاء على قلبي كما فعلت أنت.. أواه يا «رادا»..

لقد استعبدت روحي. وليس لي في الأمر حيلة، فما قُدّر لابد أن يكون، ولم يخلق بعد الجواد الذي يستطيع أن يحمل الإنسان بعيداً عن نفسه.. إنني أشهد الله، وأشهد ضميري على أنني اخترتك زوجة لي، وبحضور والدك وجميع هؤلاء الناس. ولكني أحذرك من أية محاولة للحد من حريتي، فأنا شخص يعشق الحرية، وسأعيش دائماً كما أهوى!

وسار نحوها وقد زمّ شفتيه، وأبرقت عيناه، ورأيناه يمد يده إليها. فحدثنا أنفسنا قائلين: ها هي ذي «رادا» قد نجحت في النهاية في وضع اللجام في فم جواد البراري الجامح.

ولكن ذراعيه ارتفعتا في الهواء فجأة، وسقط على الأرض، فاصطدم رأسه بها! فماذا تراه قد حدث؟! لقد خيل إلينا أن رصاصة أصابت رأسه، ولكن الواقع أن «رادا» لوّحت فجأة بسوط التف حول ساقيه، ثم جذبت السوط في قوة فوقع الشاب على الأرض!

وعادت الفتاة تستلقي في مكانها بغير حراك، وقد ارتسمت على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شفتيها ابتسامة خبيثة.. وأخذنا نرقب ما سيحدث بعد ذلك، فرأينا «زوبار» يستوي جالساً، ثم يمسك رأسه بيديه، وكأنما يخشى عليه أن ينفجر.. وما لبث أن توقف بهدوء، واتجه نحو الخلاء دون أن يلقي نظرة على أحد. فهمس «نور» في أذني قائلاً:

- يحسن بك أن تراقبه ولا تتركه يغيب عن نظرك! ومن ثم تسللت إلى البرية وراءه في ظلام الليل البهيم.

وسكت «مكارا» وأفرغ غليونه من بقايا التبغ المحترق فيه، ثم أعاد حشره بتبغ جديد. ولففت معطفي حول جسمي، واضطجعت في مجلسي لأدرس وجهه المتغضن الذي لوحته الشمس والهواء.

وكان يدمدم لنفسه ويهز رأسه، وقد التوى شارباه الأشيبان، وتلاعبت الريح بشعره، فذكَّرني شكله بشجرة بلوط عفا عليها الزمان، وأصابتها الصاعقة، ولكنها بقيت قوية جبارة، فخورة بهذه القوة! ومضى البحر يهمس للرمال، والريح تحمل صوت همسه إلى المراعي. وكانت السحب التي أخذت تتجمع، تجعل ليل الخريف أشد ظلاماً عن ذي قبل. وعادا «مكارا» يستأنف حديثه:

- وظل «زوبار» يجرُّ قدميه، واحدة بعد الأخرى، وهو سائر وقد نكس رأسه على صدره وأرخى ذراعيه إلى جنبيه،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكأنهما سوطان. حتى إذا وصل إلى شاطيء جدول صغير، جلس على حجر وراح يئن أنيناً خافتاً يكاد يفتت قلبي.

ولكنني لم أقترب منه.. فإن الكلمات لا تخفف من حزن الرجل وآلامه.. أليس كذلك؟ وكانت هذه هي المشكلة!

وظل جالساً في مكانه ساكناً.. ومضت عليه في هذا الوضع ساعة، ثم أخري، ثم ثالثة، دون أن تبدو منه حركة ما وكنت مستلقياً غير بعيد عنه، وكان الجو قد صفا، وأخذت المراعي تسبح في ضوء القمر الفضي، فأصبح في الإمكان رؤية الأشياء البعيدة.

وعلى حين غرة، رأيت «رادا» قادمة تهرول نحونا من المعسكر، فغمرني فرح طاغ، وقلت لنفسي:

- هذا جميل منك يا «رادا» الباسلة!

وتقدمت الفتاة نحو «زوبار» فبلغته دون أن يسمع وقع قدميها، ثم وضعت يدها على كتفه. وأجفل الشاب، فأنزل يديه ورفع رأسه. وفجأة انتصب واقفاً على قدميه وشهر مديته.. يا لله.. لقد خِلت أنه سيقتلها، وهممت بأن أقفز لأتدخل بينهما وأستغيث بالقوم، لولا أنني سمعت «رادا» تقول له:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- الق هذه المدية وإلا أهبت رأسك!

ودققت النظر، فرأيت «رادا» تحمل (مسدساً) في يدها وقد صوّبته إلى رأس «لويكو زوبار» فقلت في نفسي: يا لها من شيطانة بنت شيطان.. إنهما متكافئان في القوة، على الأقل.

telegram: @mbooks90

وانتابتني الحيرة وأنا أفكر فيما قد يحدث بعد ذلك.

وسمعتها تقول:

- إنني لم آتِ لأقتلك، وإنما جئت أسالمك.

ثم وضعت المسدس في حزامها، وقالت:

- ابعد هذه المدية!

فأبعدها ونظر إليها بعينين ينبعث منهما الشرر. وكان منظراً رهيباً في الواقع. فقد كانا حيوانين هائجين، وكان كل منهما بديعاً، وجريئاً.. ولم يكن ثمة من يراهما غير القمر الساطع وأنا!

وعادت «رادا» تقول للشاب:

- اصغ إلي يا «زوبار».. إنني أحبك!

على أن الشاب اكتفى بهز كتفيه، وكأنه مقيد اليدين والقدمين، فمضت هي تقول:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لقد رأيت رجالاً عديدين، ولكنك أشجعهم وأجملهم.. ولقد كان كل منهم على استعداد لأن يزيل شاربيه لو أنني طلبت ذلك منه! بل ولأن يجثو تحت قدميَّ إذا أردت ذلك.. ولكنني لم أحفل بهم، فلم يكن بينهم واحد شجاع.. كانوا بالنسبة لي كالنساء، ولم أجد بين الغجر غير قليلين من البواسل. أجل لم يبق يا «زوبار» بين الغجر غير عدد ضئيل من الشجعان.. ولم يسبق لي أن أحببت أحداً يا «زوبار» ولكني أحبك أنت.. كما أحب حريتي أيضاً..

ومع أنني أحب حريتي أكثر من حبي لك، إلا أنني لا أستطيع العيش دونك، كما أنك لا تستطيع العيش دوني.. إني أريد أن تكون لي، وأن تكون لي بروحك وجسدك.. أتسمعني؟

فضحك «زوبار» وقال:

- إني مصغٍ إليك، فإن الإصغاء إليك يشرح صدري.. امض في حديثك.

فقالت:

- ليس لدي شيء آخر أود أن أقوله سوى: افعل ما شئت، ولكن ثق بأنك لي. فلا تضيع مزيداً من الوقت. إن قبلاتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعناقي ينتظرانك.. سأقبلك في وجد، ولسوف تنسى -تحت سحر قبلاتي- حياة المغامرات الماضية.. لن تتردد أغانيك المرحة التي يشغف بها الغجر في المراعي، لأنك ستغني أرق الأغاني لي وحدي.. لـ «رادا».. لا تضيع مزيداً من الوقت، فقد قلت لك ما عندي وهو يعني أنك ستكون منذ الغد في خدمتي وحدي، وبإخلاص وولاء، كما يخدم الشاب رفيقاً يكبره سنًّا.. وعليك أن تنحني عند قدميَّ غداً، وأمام المعسكر بأسره، فتقبّل يدي اليمنى. وعندئذ فقط أكون زوجة لك!

إذن فهذا ما كانت الشيطانة تسعى وراءه.. ومن الصحيح أن الشيوخ ذكروا أن هذه العادة كانت متَّبعة في قديم الزمان، بين أهل «الجبل الأسود» ولكنها لم تكن مطلقاً بين الغجر. فهل تتصور أيها الشاب شيئاً أكثر مهانة من ذلك؟.. لا.. ولو اعتصرت مخك عاماً بأكمله!

ورددت البراري صيحة انبعثت من «زوبار».. وكانت صيحة جريح مشرف على الموت.. وارتجفت «رادا»، ولكنها لم تظهر مشاعرها، وإنما قالت:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أستودعك الله إلى الغد.. وغداً سوف تفعل ما قلته لك.. هل تسمعني يا «زوبار»؟

فزمجر «زوبار» وقال:

- لقد سمعت وسأفعل ما أردتِ.. ومد ذراعيه لها، ولكنها تركته وانصرفت دون أن تتكبد أكثر من إلقاء نظرة عليه، فترنّح وكأنه شجرة اقتلعتها الرياح، ثم سقط على الأرض وهو يشهق ويبكي ويضحك.. في وقت واحد!

***

وصمت «شودرا» لحظات، ثم قال:

- هذا ما فعلته به تلك اللعينة «رادا». ولقد هُرعت إليه محاولاً أن أرده إلى رشده، ولكني أخفقت.. ترى لماذا يتعين على الناس أن يتألموا هكذا؟ هل هناك من يجد متعة في سماع أنين شخص كسير القلب؟ إن هذا لغز يستعصي - للأسف - على العقول!

وعندما عدت إلى المعسكر، أبلغت العجائز بما حدث، فأخذنا نفكر في الأمر، ونقلّبه على بساط البحث، ثم استقر رأينا - في النهاية - على أن ننتظر ما قد يحدث!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وها أنذا أقص عليك ما حدث..

فقد اجتمعنا في المساء، التالي حول النار، كالمعتاد، وانضم إلينا «زوبار». وكان يبدو ذليلاً وقد تهدّم في ليلة واحدة، فغارت عيناه في محجريهما، وظلتا منكستين إلى الأرض، فلم يرفعهما، حتى شرع يقول:

- إليكم ما حدث أيها الرفاق. لقد فتشت قلبي في هذه الليلة فلم أجد فيه متسعاً لحياة الحرية - التي كنت أهواها وأحياها دائماً- إذ احتلت «رادا» كل ركن فيه.. وها هي ذي «رادا» الجميلة تبتسم في كبرياء وكأنها ملكة.. إنها تحب الحرية أكثر مما تحبني، ولكني أحبها أكثر مما أحب الحرية، ولهذا قررت أن أنحني أمامها كما أمرتني أن أفعل، وسوف يرى الجميع كيف استعبد جمالُـهـا «لويكو زوبار» الباسل، الذي كان - قبل أن يلقاها - يلعب بالنساء كما يلعب القِطُّ بالجُرْذان.. ولهذا فستصبح زوجتي وتقبِّلني وتعانقني.. وعلى أن أعزف عن كل رغبة في الغناء إليكم، وألا أتحسر على ضياع حريتي.. أليس هذا ما ينبغي أن يكون يا «رادا»؟!

ورفع عينيه نحوها في اكتئاب، فأحنت رأسها دون أن تنبس بكلمة، وأشارت إلى الأرض الممتدة أمامها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يكن في إمكاننا أن نتصور ما وقع. بل لقد شعرنا بحافز يدفعنا إلى الابتعاد عن المكان، حتى لا نرى «لويكو زوبار» وهو يلقى بنفسه عند قدمي فتاة، ولو كانت هذه الفتاة هي «رادا».. فقد كان في ذلك ما يدعو إلى الخزي.. بل كان أمراً شديد الإيلام!

وصاحت «رادا» بـــ «زوبار»:

- هيا!

فضحك «زوبار».. ويا لها من ضحكة كان لها رنين الصلب، وقال:

- لا تكوني متسرعة إلى هذا الحد، ففي الوقت متسع، متسع يكفي لأن يبعث الملل مني!

ووجه إلينا الحديث قائلاً:

- إذن فهذا هو الحال يا رفاق! ما الذي بقى في وسعي أن أفعله؟ إن الشيء الوحيد الباقي هو أن أرى ما إذا كان قلب حبيبتي «رادا» صلباً إلى الدرجة التي تريدنا أن نتصوره عليها.. وسوف أجرّب ذلك، فاغفروا لي يا رفاق!

وقبل أن يتسع لنا الوقت لنحدث ما كان يجول بخاطره رأينا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«رادا» ملقاة على الأرض، وقد غابت مدية «زوبار» المقوسة في صدرها حتى المقبض.

فأصابنا الذهول، ولكن «رادا» انتزعت المدية وألقت بها جانباً، ودست خصلة من شعرها في الجرح، ثم ابتسمت وهي تقول في صوت عال واضح النبرات:

- الوداع يا «زوبار».. لقد كنت أعرف أنك ستفعل هذا!

وكانت هذه آخر عبارة فاهت بها قبل أن تسلم الروح. فهل رأيت من أي طراز كانت هذه الفتاة أيها الشاب؟ كانت شيطانة إن كانت بين الشياطين إناث.. فليحمنا الله!

وقال «زوبار» بصوت دوَّى في أرجاء البراري:

- الآن ألقي بنفسي عند قدميك يا مليكتي المتغطرسة.

ثم ألقى بنفسه على الأرض، وضغط بشفتيه على قدمي «رادا» الميتة، ورقد دون حراك، فخلعنا ما على رؤوسنا ووقفنا صامتين!

ماذا يمكن أن يقال في لحظة كهذه؟.. لا شيء.. وما لبث «نور» أن غمغم قائلاً:

- قيدوا هذا الشاب!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن لم يكن هناك من يستطيع أن يرفع يداً ليقيد بها «لويكو زوبار» لم يكن في وسع أي مخلوق أن يفعل ذلك. وكان «نور» يعرف هذا.. ولهذا فإنه لم يلبث أن تحول وانصرف عن المكان. وإذ ذاك انحني «دانيلو» والتقط المدية - التي انتزعتها «رادا» من صدرها وقذف بها بعيداً عنها - ثم وقف برهة يتأملها - وكان نصلها الحاد المقوس، ما يزال ملطخاً بدم «رادا» - ثم تقدم نحو «زوبار» وأغمد المدية في ظهره في مقابل القلب. وربما كان ذلك من حقه، فهو قبل كل شيء والد «رادا» وهو أيضاً الجندي الذي حارب تحت إمرة «كوسوت»!

وتحوَّل «لويكو زوبار» نحو «دانيلو» وقال:

- أحسنت صنعاً.

ثم لحق بـ «رادا». ووقفنا ننظر إليهما:

فهذه «رادا» ملقاة على الأرض، قابضة على خصلة من شعرها، كان تضغطها إلى صدرها في مكان الجرح، وعيناها مفتوحتان تحملقان في السماء الزرقاء.. وعند قدميها رقد «لويكو زوبار» الباسل وقد تهدَّل شعره المجعد وغطى وجهه فأخفاه عنا. ولبثنا واقفين فترة نهباً لأفكارنا.. وكان «دانيلو» يقف وكل جسمه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يرتجف، وقد أخذ يتطلع إلى السماء، ولكنه لم ينبس ببِنْتِ شفة.. أما العجوز «نور» - الذي عاد ثانية إلى المكان - فقد ألقى بنفسه على الأرض، وأخذت شهقاته تهز جسده هزًّا .. وكان له العذر - كل العذر - في البكاء!

والخلاصة هي هذه: لا تدع شيئاً يغريك على التحول عن السبيل الذي طرقته، بل سر فيه قدماً، لا تحد عنه، وبهذا قد تتجنب أية نهاية سيئة!

هذه هي القصة كلها أيها الصقر الصغير!

***

وتوقف «مكارا» عن الكلام، ووضع غليونه في كيس التبغ، ثم ضم معطفه ليغطي صدره.. وكان المطر قد بدأ يهطل رذاذاً، واشتدت الرياح، وأخذت الأمواج تتكسر وهي ترسل هديراً غاضباً. وعادت الجياد، واقتربت من النار التي أخذت تخمد أمامنا، ثم نظرت إلينا بأعين تسطع بالذكاء، ودارت حولنا محيطة بنا كالسِّوار.. وصاح «مكارا» يرحب بها، ثم ربت على عنق جواده الأسود المفضَّل، وتحول ناحيتي وقال:

- لقد حان وقت النوم!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتدثر من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في معطفه القوقازي، ثم تمدد على الأرض واستكان.. وسكنت حركاته. ولكنني لم أجد رغبة في النوم. فجلست أحملق في الظلام المخيم على البرية الممتدة أمامي.. وأخذت صورة «رادا» تطوف أمام مخيلتي، وقد تجسمت لي في كبريائها وسموها وفتنتها.. ورأيتها تضغط يدها القابض على خصلة شعرها إلى صدرها، وقد ظهرت من خلال أصابعها الرقيقة، القاتمة اللون، قطرات من الدم أخذت تتساقط وتتحول - عندما تصطدم بالأرض - إلى نجوم ملتهبة. وتراءى لي شبح «لويكو زوبار» الباسل وهو يطوف وراءها، وخصلات شعره المجعد تغطي وجهه، وتتساقط من تحت هذا الشعر قطرات كبيرة من الدموع الباردة!

وازداد تساقط المطر، وغنى البحر أغنية حزينة لهذين الغجريين الجميلين: «لويكو زوبار» و«رادا» ابنة الجندي العجوز «دانيلو».

وأخذ الشبحان يدوران ويدوران في رقص بديع، ودونما صوت، في ظلام الليل البهيم.

ولكن «زوبار» الجميل لم يتمكن - رغم محاولاته - من اللحاق بـ«رادا» المتكبرة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلوشا

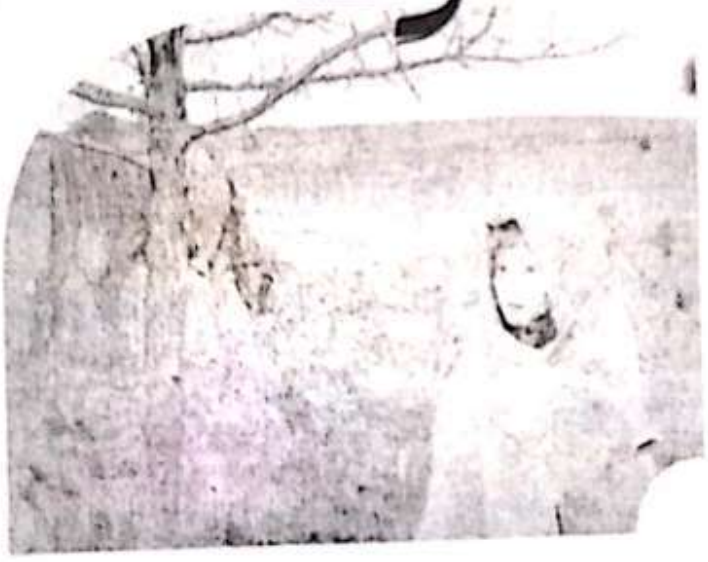

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ركن الفقراء من المقبرة، وبين القبور التي تناثرت عليها أوراق الأشجار، وخلَّفت الأمطار والرياح عليها آثارها، كانت ثمة امرأة في ثوب من قماش رخيص، وعلى رأسها شال أسود، وقد جلست عند أحد القبور تحت ظلال الفروع القليلة لشجرتين من شجر «التامول» مجردتين من الأوراق تقريباً. وكانت تنسدل على أحد خديها الذابلتين خصلة من شعر أشيب، بينما بدت شفتاها الرقيقتان مزمومتين، وقد انثنى ركن فمها إلى أسفل، تحيط بهما تجعدات تنم عن الحزن.. وكذلك كانت جفونها مُقرَّحة تشي بالإفراط في البكاء، وطول السهد والهم!

وظلت المرأة جالسة لا تتحرك بينما أقف على مقربة منها أرقبها.. ولم تتحرك عندما ازددت اقتراباً منها، بل كان كل ما فعلته هو أن رفعت نحوي عينين واسعتين، خاليتين من أي بريق، ثم تركتهما تنخفضان ثانية، دون أن تبدي أي مظهر للفضول، أو الحرج، أو ما ينم عن أن اقترابي منها أثار أي شعور في نفسها!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وألقيت عليها تحية موجزة، وسألتها عمن دُفن في القبر؟ فأجابت في غير اكتراث ورصانة:

- ابني.

- أكان شابًّا كبيراً؟

- كان عمره إثنى عشر عاماً.

- ومتى مات؟

- منذ أربعة أعوام.

وأرسلت زفرة عميقة، ودسّت الخصلة النافرة إلى موضعها تحت الشال. وكان اليوم حارًّا، والشمس تصب شُواظها دونما رحمة على مدينة الموتى تلك.. حتى لقد استحال لون العشب القليل، النابت على القبور بنيًّا أسمر، لفرط الحرارة والتراب بينما سكنت أوراق الشجيرات المغبرة الخشنة، التي كانت تقوم كئيبة بين الصلبان، وكأنها هي الأخرى ميتة!

وعدت أسأل المرأة وأنا أشير برأسي نحو قبر الصبي:

- وكيف كان موته؟

فأجابت في اقتضاب، وهي تمد يداً مغضنة لتربت على القبر:

- لقد ديس بسنابك الخيل حتى مات!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وكيف كان ذلك؟

وكنت أعلم أني أجافي الذوق والمجاملة، ولكنَّ إعراض المرأة وهدوءها أثاراني وحرضاني، حتى لقد وسوست لي نزوة لم أدر لها مبرراً، بالرغبة في أن أرى الدموع في عينيها.. كان ثمة شيء غير طبيعي في سكونها وإن لم يفتني - في الوقت ذاته - أن أتبين أنه لم يكن مصطنعاً.. وحملها سؤالي على أن ترفع عينيها مرة أخرى نحوي، فلما تأملتني متفحصةً من رأسي إلى قدميَّ -في صمت- أرسلتْ زفرة قصيرة، وبدأت تروي قصتها في صوت وقور، هادئ، مفعم بالشجن:

- إليك ما جرى.. كان أبوه في السجن جزاء الاختلاس، وقد قضى عاماً ونصف العام. وكنا في تلك الفترة، وقد أتينا على كل ما كان مدخراً لدينا من مال.. وما كان هذا المال المدخر بالكثير. وما أن خرج زوجي من السجن حتى كنا قد بلغنا من الفقر درجة اضطررت معها إلى أن أتخذ من ثمار اللفت الليفي وقوداً للتدفئة فلقد أعطاني بستاني - كنت أعرفه - ملء عربة من ثمار اللفت الليفي التالفة، فجففتها، وأخذت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أستعملها مع الروث المجفف كوقود، فكانت ترسل دخاناً فظيعاً، وتفسد مذاق الطعام!

***

واستطردت المرأة قائلة:

- وكان «كلوشا» - ابني - يذهب إلى المدرسة. وكان صبيًّا خفيف الحركة، حاضر البديهة، جد مدبر ومقتصد حتى إنه كان يحضر معه إلى البيت دائماً كل ما يصادفه من قطع الخشب والوقود التي يعثر عليها أثناء عودته من المدرسة. وكنا إذ ذاك في فصل الربيع، وقد أخذ الجليد في الذوبان، ولم يكن لدى «كلوشا» ما ينتعله سوى حذاءين من اللباد. وكان إذا ما خلعهما بدت قدماه شديدتي الاحمرار.. وفي تلك الأثناء، أطلقوا سراح أبيه، فأخرجوه من السجن، ونقلوه إلى البيت في عربة، إذا كان قد أصيب بالشلل. وظل راقداً في البيت، يرمقني وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة، فكنت أرمقه وأنا أقول له في نفسي: إنك أنت الذي جلبت عليَّ كل هذا.. والآن، هل تراني سأطعمك؟ إنك لجدير بأن تُلقى في مستنقع قذر، وهذا ما أتمنى أن أفعله بك!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن «كلوشا» بكى حين رآه، وشحب وجهه حتى صار في بياض غطاء الفراش، وتدافعت الدموع غزيرة، كبيرة على خديه، وسألني:

- ماذا جرى يا أمي؟

فقلت له:

- لقد أخذ حظه من الحياة!

ومنذ ذلك اليوم أخذت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ. ورحت أعمل حتي أصبحت جلداً على عظم، ولكنني كنت مهما أضني نفسي لا أحصل على أكثر من عشرين كوبيكا.. ولا يحدث هذا إلا في الأيام التي يواليني فيها الحظ!

كانت حياة أسوأ من الموت، حتى إنني كثيراً ما فكرت في أن أقضي على نفسي بيدي. ولقد فطن «كلوشا» إلى حالي هذه، فساءت حالته النفسية. وعندما خُيّل لي مرة أنني لم أعد أحتمل، فهتفت في أسى:

- يا لهذه الحياة اللعينة التي أحياها! ألا ليتني أموت.. أو ليت أحدكما يموت!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكنت أوجه الخطاب إلى «كلوشا» وأبيه. واكتفى الأب بأن هزَّ رأسه، وكأنه يقول:

- لسوف أرحل عنا قريب، فلا تتململي، ولكن اصبري!

أما «كلوشا» فقد رمقني بنظرة طويلة، ثم أشاح عني، وغادر البيت. وما إن خرج حتى شعرت بالندم للكلمات التي قلتها، ولكن وقت الندم كان قد فات.. ولم تعد ثمة فرصة لتداركه. فلم تنقض ساعة حتى أقبل شرطي في مركبة، وقال:

- أأنت «جوسبوشا شيشينينا»؟

وغاص قلبي بين ضلوعي بينما عاد الشرطي يقول:

- إنك مدعوة إلى المستشفى، فإن جياد التاجر «أنوخين» قد داست ابنك..

وركبت لتوي إلى المستشفى، وكأنما كان ثمة من نثر على مقعد العربة جمراً من نار متقدة. وظللت طيلة الطريق أقول لنفسي: ما الذي فعلته أيتها المرأة التعسة؟

ووصلنا أخيراً، فإذا «كلوشا» راقد في سرير، وجسمه كله ملتف في الضمادات، وابتسم لي، وانحدرت الدموع على خديه..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقال هامساً:

- اغفري لي يا أماه.. لقد أخذ الشرطي النقود.

- فقلت:

- عن أية نقود تتكلم يا «كلوشا»؟

فقال:

- النقود التي أعطانيها المارة في الطريق، و«أنوخين» أيضاً!

قلت:

- ولأي شيء أعطوك النقود؟

فقال:

- لهذا.

ثم أرسل أنيناً خافتاً قصيراً.. واتسعت عيناه. فقلت:

- كيف لم تر الجياد وهي مقبلة عليك يا «كلوشا»؟

وإذ ذاك قال في بساطة وجلاء:

- بل رأيتها يا أماه، ولكنني لم أشأ أن أتحول عن طريقها، إذ خطر لي أن الناس سيمخونني نقوداً، إذا هي داستني.. وقد منحوني فعلاً!

تلك كانت عين كلماته بالنص!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتابعت المرأة قصتها قائلة:

- إذ ذاك تبينت كل شيء، وأدركت ما فعله ملاكي بنفسه، ولكن الأوان كان قد فات. إذ مات في الصباح التالي.

وقد ظل محتفظاً بصفاء ذهنه حتى اللحظة الأخيرة، ولم ينفك عن القول: اشتري لأبي كذا.. واشتري له كذا.. وابتاعي شيئاً لنفسك أنت الأخرى! وكأنما كانت هناك أموال طائلة. وكانت هناك في الواقع سبعة وأربعون روبلاً..

فذهبت إلى التاجر «أنوخين»، ولكنه لم يمنحني أكثر من خمسة روبلات، وهو يزمجر ويعترض ويقول:

- لقد ألقى الصبي بنفسه تحت الجياد، وقد رآه الكثيرون، فلأي شيء جئت تستجدينني مالاً؟

ولم أذهب إليه بعد ذلك قط.. وهذا كل ما حدث أيها الشاب.

وكفت عن الكلام، ثم استعادت ما كانت عليه من برود وجمود...

وكانت المقبرة هادئة، خالية من الناس. وكانت الصلبان والأشجار الذابلة، وكثبان التراب التي كانت القبور تتألف منها،

telegram: @mbooks90
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذه المرأة الجامدة الواجمة التي جلست على القبر في ذلك الوضع الحزين..

كانت كل هذه الأشياء تجعلني أفكر في الموت، وفي الآلام التي يعانيها البشر!

ولكن السماء كانت خالية من السحب، وقد أخذت تسكب على الأرض قيظاً حارقاً.. فتناولت بعض قطع النقود من جيبي، وقدمتها للمرأة التي كانت باقية على قيد الحياة، رغم أن النكد وسوء الحظ والتعاسة كانت كفيلة بقتلها.. ولكنها هزت رأسها وقالت في تؤدة غريبة:

- لا تزعج نفسك أيها الشاب، فقد نلت كفايتي اليوم، ولم أعد أرغب في مزيد. إنني وحيدة في الحياة.. وحيدة تماماً!
- وأرسلت زفرة حَرَّى، وعادت تزم شفتيها إلى الدرجة التي كان فمها ينثني عندها بذلك الشكل الحزين الذي رأيتها عليه في البداية!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مولد إنسان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك في سنة ماضية، سنة المجاعة، بين سوخومي وأوتشمتشيري، على شاطيء نهر كودور، على مسافة غير بعيدة من البحر - كان ضجيج الرشاش الأصم لأمواج البحر يُسمع بوضوح من خلال الخرير المرح المياه النهر الجبلي الوضاءة.

كان الفصل خريفاً. وأوراق الغار الكرزي الصفراء تدور وتتقلب في زبد كودور الأبيض، مثل أسماك السلمون الصغيرة الخاطفة، وكنت جالساً على الصخور عند النهر أفكر: أغلب الظن أن النورس والقاق تتصور الأوراق سمكاً وتنخدع، ولهذا السبب تصيح متكدرة هناك، وراء الأشجار، حيث يتلاطم البحر.

الكستناء فوقي مزخرفة بالذهب، وعند قدميَّ أوراق كثيرة تشبه أكفًّا مقطوعة. وغصون الخلنج على الضفة الأخرى عارية الآن، وتتدلى في الهواء مثل شبكة مقطعة، وفيها يتقافز نقَّار الخشب الجبلي الأصفر المائل إلى الحمرة، وكأنه أسير ويضرب بمنقاره الأسود على قشرة الجذع، مطارداً الحشرات، وتنقرها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طيور الزمير الحاذقة، والعصافير اليمامية - الضيوف القادمة من الشمال البعيد.

وإلى يساري، عند ذُرَي الجبال، تدلت سحب بلون الدخان ثقيلة مهددة بالمطر. وتدب منها ظلال على المنحدرات الخضر، حيث تنمو شجرة البقس الميتة، بينما في وسعك أن تجد في تجاويف أشجار الزان والزيزفون العجوزة «العسل المسكَّر» الذي كاد يقضي، في قديم الزمان، على جنود بومبي العظيم بحلاوته المسكرة، بعد أن أوقع على الأرض فيلقاً كاملاً من الرومانيين الحديديين، والنحل يصنعه من زهور الغار والأزاليا. بينما المارة من الناس يخرجونه من التجويف، ويأكلونه بعد أن يفرشونه على أرغفة خبز القمح الرقيقة.

لقد انشغلت بذلك، وأنا جالس على الصخور تحت أشجار الكستناء، ملسوعاً بشدة بالنحل الغاضب - غمست قطعة خبز في طاسة مملوءة عسلاً، وأكلت مستمتعاً باللعب الكسول لشمس الخريف.

في القفقاز خريفاً، يحس المرء وكأنه في كنيسة غنية بناها حكماء عظام - وهم دائماً آثمون عظام - بنوا ليخفوا ماضيهم عن أعين الضمير الحادة المبصرة، معبداً واسع الأرجاء من الذهب والفيروز

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والزمرد، وفرشوا على الجبال أحسن الأبسطة المنسوجة من الحرير لدى التركمان، في سمرقند وشيماخ، وسلبوا العالم كله، وجلبوا كل شيء إلى هنا، على مرأى من الشمس، وكأنما يريدون أن يقولوا لها:

- ما هو لك فهو لك بأيدي من هم لك.

.. أرى كيف كان الجبابرة الشيِّب ذوو اللحى الكبيرة والعيون الهائلة الشبيهة بعيون أطفال مرحين ينحدرون من الجبال، ويزينون الأرض، ناثرين في كل مكان الكنوز المختلفة الألوان، ويغطون قمم الجبال بطبقات سميكة من الفضة، ويطوقونها بنسيج حي من الأشجار المختلفة الأشكال، فتصبح هذه القطعة من الأرض المنعمة جميلة بشكل جنوني.

(إن الواجب الرائع هو أن تكون إنساناً على الأرض) فأي روائع ترى! وكم ينفعل قلبك بتلذذ معذب في الإعجاب الهادئ أمام الجمال!

إلا أنه في بعض الأحيان يصادف المرء صعوبة، ويمتلئ كل صدره بكراهية حارقة، ويمتص الحنين دم القلب بشراهة، ولكن ذلك ليس دائماً، فإن الشمس في كثير من الأحيان يحزنها أن تنظر إلى الناس، فقد كدحت لهم كثيراً، دون أن تنجح في صنعهم...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبالطبع يوجد الكثيرون من الطيبين، ولكن يجب إصلاحهم؛ أو - وهذا أحسن - إعادة صنعهم من جديد.

... فوق الآجام، إلى يساري، تتمايل رؤوس داكنة: في هدير أمواج البحر، وخرير النهر تتردد أصوات إنسانية لا تكاد تُسمع. إنهم «الجائعون» يسيرون إلى العمل في أوتشمتشيري من سوخومي حيث مدوا طريقاً عمومية.

أنا أعرفهم - إنهم من مقاطعة أوريول، عملت معهم سوية، وصفينا العمل سوية أمس، وغادرت قبلهم ليلاً لكي أستقبل شروق الشمس على ساحل البحر.

أربعة ريفيين، وامرأة بارزة الوجنتين، شابة، حبلى ذات بطن هائل منتفخ حتى أنفها، وعينين جاحظتين في رعب، زرقاوين رماديتين. وأنا أرى فوق الآجام رأسها مشدوداً بمنديل أصفر، فتبدو مثل زهرة عَبَّاد شمس زاهرة في مهبّ الريح. مات زوجها في سوخومي متخوماً بالفواكه، وكنت أعيش في عنبر بين أولئك الناس، وبحكم عادة روسية طيبة راحوا يتحدثون عن تعاساتهم بإطناب وصوت عالٍ، حتي لمن المحتمل أن تكون أحاديثهم الشاكية قد سُمعت في دائرة قطرها خمسة أميال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنهم أناس ضجرون مرهقون بمصيبتهم، التي قذفتهم بعيداً عن موطنهم، الأرض المنهَكة العقيمُ، وألقتهم هنا مثلما تلقى الريح أوراقاً صفراً، هنا حيث أعماهم ترف طبيعة غير مألوفة - بعد أن أذهلهم - وسحقتهم كليا ظروف عمل شاقة. كانوا ينظرون إلى كل شيء هنا وعيونهم الحائلة الألوان، الكئيبة ترف بذهول، مبتسمين بعضهم لبعض بارتباك، قائلين بخفوت:

- آه.. أية أرض هذه..

- حافلة بالبنات.

- نعم.. ومع ذلك فهذه صخور.

- أرض غير مريحة، يجب القول..

وكانوا يتذكرون مواضع وطنهم، حيث كانت كل حفنة من الأرض رفات أجدادهم، وكل شيء تذكاريًّا، مألوفاً، عزيزًا، مرويًّا بعرقهم.

وكانت معهم امرأة أخرى طويلة، منتصبة القامة، مسطحة كلوح الخشب، لها فكا حصان، ونظرة حزينة لعينين حولاوين سوداوين كفحمتين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الأمسيات كانت تخرج مع المرأة ذات المنديل الأصفر وراء العنبر، وتجلس على كومة من الزلط، وتضع خدها على راحة يدها، وتميل برأسها جانباً، وتغني بصوت عالٍ غضوب:

وراء مقبرة القرية..

في آجام خضر...

في الرمل..

أفرش منديلاً أبيض..

أنتظر طويلاً..

حبيبي العزيز..

سيأتي الحبيب..

وأركع له..

كانت ذات المنديل الأصفر تصمت في العادة، محنية الرقبة، ناظرة إلى بطنها، ولكنها أحياناً كانت تنضم إلى الأغنية فجأة، ودون توقع وبفتور وتضيف كلمات باكية بصوت محشرج قليلاً:

أوي، حبيبي..

أوي، حبيبي العزيز..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا يكتب القدر..

أن أراك مرة أخرى..

وفي الظلام الدامس الخانق لليل الجنوب كان هذان الصوتان الباكيان يذكّران بالشمال، بالبوادي الثلجية، وبعويل العاصفة الرعدية، وعواء الذئاب النائى..

ثم مرضت الحولاء بالحمى، فأخذوها إلى المدينة على حمالة من المشمع، وكانت ترتجف فيها، وتجأر، وكأنها تتابع غناء أغنيتها عن مقبرة القرية والرمل.

... اختفى الرأس الأصفر غائصاً في الهواء.

أنهيت فطوري، وغطيت العسل في الطاسة بأوراق شجر، وشددت الركيبة، وسرت على مهل في أثر الذاهبين، ضارباً بعصا أرض الطريق الصلبة.

وها أنا على شريط الطريق الضيق الرمادي. والبحر الشديد الزرقة تتماوج على الجهة اليمنى وكأن نجارين غير منظورين يصقلانه بآلاف المساجيح - والنشار الأبيض يركض على الساحل مخشخشاً، تطارده الريح الرطبة الدافئة العابقة مثل أنفاس امرأة سليمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتسير مركب تركية نحو سوخومي جانحة إلى اليسار، وقد نفخت شراعها كما كان مهندس مهيب من سوخومي ينفخ خديه السمينين - كأهم إنسان. وكان هذا يحرف الكلمات حين يتكلم قائلاً: «اشكت» و«لفت» بدلاً من «اسكت» و «لو».

- اشكت! ولف أنت عفريت، ولكن في لحظة أرسلك إلى البوليس.

وكان يحب إرسال الناس إلى البوليس، ويطيب لي أن أحسب أن ديدان القبر الآن قد أكلت حتى عظامه منذ زمن بعيد.

... أسير بيسر وكأنما أسبح في الهواء. والأفكار اللطيفة المزركشة بالذكريات تثير في الذاكرة رقصاً غنيًّا هادئاً، وهذا الرقص الغنائي في الروح - مثل القمم البيض لموج البحر. فهي في الأعلى، بينما في القرار هدوء، هناك تسبح أماني الشباب الوضاءة المرنة، مثل السمكات الفضية في أعماق البحر.

الطريق ينزل إلى البحر، وهو يزحف متلوياً مقترباً من شريط رملي تتراكض عليه الأمواج، كما تود الآجام أيضاً أن تنظر في وجه الموج، فهي تنحني عبر شريط الطريق، وكأنما تتوق للفضاء المائى الأزرق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هبت الريح من الجبال. سيهطل المطر.

... أنين خافت في الآجام - أنين إنساني يهز النفس دائماً وكأنه لقريب.

وبعد أن أباعد بين الأغصان أرى المرأة ذات المنديل الأصفر قاعدة مسندة ظهرها على جذع شجرة جوز، ورأسها ملقى على كتفها، وفمها فاغر بقبح، وعيناها جاحظتان مخبولتان، وقد وضعت يدها على بطنها الضخم، وتتنفس بصورة غير طبيعية لحد الفظاعة بحيث إن البطن كله يقفز مرتعشاً، والمرأة تجأر بصوت مثلوم، وهي ممسكة إياه بيديها كاشفة عن أسنان صفر كبيرة.

- هل أصابك شيء؟

سألتها منحنياً عليها - وهي تمرّغ كالذبابة، رجليها العاريتين في طبقة من الغبار الرمادي، مؤرجحاً رأساً ثقيلاً، وتشخر، صاحت:

- إذ.. هب.. يا عديم الحياء.. إذذ.. هب.

وأدركت جلي الأمر - فقد رأيت ذلك ذات مرة - فارتعبت بالطبع، وقفزت إلى الوراء. بينما راحت المرأة تزعق بصوت عالٍ، وبجهد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وطفرت من عينيها الموشكتين على الانفجار دموع كَدِرَة، وجرت على وجهها القرمزي المنتفخ بإجهاد.

وهذا أعادني إليها. ألقيت على الأرض. زكيبتي، وسخان الشاي، والطاسة، ووضعت ظهرها على الأرض، وأردت أن أعكف رجليها من ركبتيها - فدفعتني، بعد أن لطمتني على وجهي وصدري بيديها، واستدارت، وجأرت كالدبة، وسارت على الأربع متوغلة في الأجمة ناخرة.

- قاطع طريق.. إبليس.

وخارت يداها فسقطت، واصطدم وجهها في الأرض، وزعقت المرأة ثانية، باسطة رجليها بتشنج.

في حرارة الانفعال تذكرت بسرعة ما كنت أعرف عن هذا الأمر. قلبتها على ظهرها، وعكفت رجليها، وقد خرج منها كيس الرأس.

- استلقي.. ستلدين الآن.

وركضت إلى البحر، وطويت بنطلوني، وغسلت يدي، ورجعت وصرت مولِّداً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلوّت المرأة، مثل لحاء شجرة بتولا على نار، وضربت بيديها الأرض حولها، تقلع العشب الذاوي، تريد طوال الوقت أن تضعه في فمها، وغطت بالتراب وجهها المرعب اللا إنساني ذا العينين الوحشيتين الممتلئتين دماً، وقد انفجر ماء الرأس وبان الرأس، وكان عليّ أن أمنع ارتعاش رجليها، وأساعد الوليد، وأراقبها حتى لا تحشر العشب في فمها الملتوي العاوي..

تشاتمنا قليلاً، هي من خلال أسنانها المطبقة، وأنا أيضاً بصوت غير عالٍ. هي من الألم، وحتماً من الخجل، وأنا من الارتباك والإشفاق الأليم عليها...

- يا إلهي...

قالت بحشرجة، وشفتاها الزرقاوان معضوضتان ومزبدتان، ومن عينيها اللتين كأنما انمحا لونهما في الشمس فجأة، راحت تنسكب تلك الدموع الغزيرة لعذاب أم لا يطاق، وبدنها كله يتكسر ويصير اثنين.

- اذهب.. يا.. شيطان..

كانت طوال الوقت تدفعني بيديها الواهتين الملتويتين فأقول لها بإقناع:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يا حمقاء، لتلدي، لتلدي بسرعة، ولا تهتمي بشيء.. كانت تدعو للرثاء بشكل مؤلم، وتبدو دموعها وكأنها طفرت في عيني، وكان الأسى يعصر قلبي، فأود لو أصرخ، وأصرخ:

- أسرعي!

وها هو، على يدي، إنسان أحمر اللون. أنا أرى، ولو من خلال الدموع، إنه أحمر بكليته، ومتذمر من العالم، يلبّط، ويتصارع، ويصرخ بشدة، رغم أنه ما يزال مربوطاً بأمه. وعيناه ذرقاوان، وأنفه مضغوطة بشكل مضحك في وجه أحمر متكسر، وشفتاه تضطربان وتتمطيان.

- آه.. يا...

وهو زلق، وقد يقع من يدي فجأة، فأنا راكع على ركبتي، وأنظر إليه، وأضحك. فأنا سعيد جدًّا برؤياه! ونسيت ما ينبغي أن أفعله...

- اقطع...

تهمس الأم همساً خافتاً، وعيناها مغمضتان، والوجه ضامر، بلون التراب، مثل وجه الميت، والشفتان الزرقاوان تتحركان بالكاد:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- بالسكين.. اقطع...

كانت سكيني قد سُرقت في العنبر. فقرضت الحبل السري بأسناني، وكان الطفل يصرخ بصوت خفيض، بينما الأم مبتسمة. أرى كيف تزهر بشكل مذهل عيناها اللتان لا غور لهما، وتلتهبان بنار زرقاء.. وتتلمس يدها السمراء التنورة باحثة عن الجيب. وتهمس الشفتان الداميتان المعوجتان:

- لا.. قوة.. في الجيب.. شريط.. شريط..

اربط السرة.

أخذت الشريط، وربطت، وهي تبتسم بألق متزايد، بلطف وألق شديد حتى يكاد بصري يعيش بهذه الابتسامة.

- أصلحي من شأنك، أما أنا فذاهب لأغسله..

تمتمت في قلق:

- احذر.. على مهلك. احذر..

إن هذا الإنسان الصغير الأحمر لا يتطلب أي حذر على الإطلاق: ضم قبضتيه وراح يصرخ ويصرخ وكأنما يدعو إلى العراك معه.

- يا.. يا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنت، أنت! وطد نفسك أقوى، يا أخ، وإلا فإن الأقرباء سيقلعون رأسك بسرعة..

وصرخ بجدية وحدة خاصتين حين اندلقت عليه لأول مرة موجة بحرية ساطتا كلينا بمرح، وبعد ذلك أخذت أطبطب براحة يدي صدره وظهره، فقلّص عينيه، واضطرب، وصرخ بصوت رنان، والأمواج تلطمه واحدة بعد الأخرى.

- اصرخ أيها الوليد!.. اصرخ بكل قوتك..

عندما عدت به إلى أمه، كانت مستلقية وقد أغمضت عينيها، عاضة شفتيها في نوبات الطلق الأخيرة المخرجة للمشيمة، ولكن بالرغم من ذلك سمعت همسها المتوسل من خلال الأنين والتنهد:

- أعطني.. أعطني الطفل.. أعطينيه.

- سينتظر..

- اعطني..

فككت أزار بلوزتها عند صدرها بيدين مرتعشتين غير واثقتين، وساعدتها على أن تخرج ثديها الذي أعدته الطبيعة لإرضاع عشرين طفلاً!.. ووضعت الوليد المتمرد على الثدي الدافئ، ففهم في الحال، وصمت.

telegram: @mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يا مريم العذراء!.. أيتها السيدة الطاهرة النقية.

وتنهدت الأم مرتعشة، وهي تقلّب الرأس الأشعث على الركيبة من جانب إلى آخر.

وسكتت فجأة، بعد أن هتفت بخفوت، ثم فتحت مرة ثانية تينك العينين الرائعتين للغاية، عينين مقدستين وضاءتين، زرقاوين تنظران في السماء الزرقاء، وفيهما تلتهب وتذوب ابتسامة شكر وفرح. ورفعت الأم يداً ثقيلة، ورسمت علامة الصليب ببطء عليها هي وعلى طفلها...

- الحمد لله، أيتها الأم السماوية الطاهرة.. الحمد لله.. وانطفأت عيناها، وغارتا، وصمتت طويلاً، طويلاً، لا تكاد تتنفس، وفجأة قالت في انشغال، وبصوت متصلب:

- فك زكيبتي، أيها الشاب...

وفككت الزكيبة ونظرت إليّ بإمعان، ابتسمت باقتضاب ووهن، وكأن تورداً لا يكاد يُلحظ لمع على خديها الناحلين، وجبينها الذي يتصبب عرقاً. قالت:

- ابتعد...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا تتحركي كثيراً...

- أوه... ابتعد.

- ابتعدت إلى مسافة قصيرة في الأجمة، وكان قلبي تعب، وفي الحنايا تزغرد طيور جميلة، وهذا مع رشاش البحر الموصول يوحي بالارتياح حتى لمن الممكن أن أسمع ذلك طوال عام.. على مسافة غير بعيدة يتردد خرير جدول مثل فتاة تحكي لصديقتها عن معشوقها.

وفوق الأجمات ارتفع الرأس المشدود بالمنديل الأصفر كما ينبغي.

- آه، أنت، يا أخت، تبكرين في الحركة!

جلست ممسكة غصن شجيرة في يدها، ممتقعة، وليس في وجهها الرمادي قطرة دم، وفي مكان عينيها بحيرتان زرقاوان هائلتان، همست بحنان:

- انظر كيف ينام..

- كان ينام نوماً طيباً، إلا أنه لم يكن، في نظري، أحسن من الأطفال الآخرين في شيء، وإذا كان هناك فرق فهو في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحالة: كان يرقد على كومة من أوراق الخريف الملونة، تحت أجمة لا تنمو مثلها في ولاية أوريول.

- لو ترقدين، يا أم..

قالت هازة رأسها:

- لا.. يجب عليّ أن أتهيأ، وأذهب إلى هذه.. ما اسمها؟

- أو تشمشتيري؟!

- نعم.. كم قطع جماعتنا من أميال؟!

- وهل في استطاعتك أن تسيري حقّاً؟

- العذراء ستعينني..

حقاً إذا كانت هي مع العذراء، فيجب التزام الصمت!

إنها تنظر تحت الأجمة إلى الوجه الصغير المنتفخ في غير رضا، تشع من عينيها أشعة دافئة لضوء حنون، وتتلمظ بشفتيها، وتمسد الصدر بحركة بطيئة من يده.

أنا أشعل ناراً، وأصف حجارة لأضع السخان عليها..

- الآن سأضيفك على شاي، أيتها الأم.

- ها؟ شاي؟ لنشرب.. لقد جف كل شيء في ثديي..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لماذا تركت أهل ولايتك؟

- لم يتركوني!.. أنا التي تأخرتْ بينما هم قد شردوا. ولكن ذلك حسن، وإلا فكيف كنت ألد بحضورهم.

ونظرت إليَّ، وغطت وجهها بمرفقها، ثم بصقت دماً، وضحكت في خجل.

- أهذا بكرك!

- البكر.. وأنت من؟

- إنسان كما يبدو..

- بالطبع إنسان!.. متزوج؟

- لم يكن لي الشرف..

- أنت تكذب؟

- لماذا؟

أطرقت ببصرها، وفكرت قليلاً ثم قالت:

- وكيف تعرف الأمور النسائية؟

وكذبت، فقلت:

- درست ذلك. أنا طالب. هل سمعت عن الطلاب؟.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وكيف لا! فَقَسٌّ قريتنا له ابن كبير، هو طالب أيضاً، يدرس العلوم الدينية.

- وأنا من هؤلاء.. أنا ذاهب لجلب الماء.

- أمالت المرأة رأسها نحو ولدها، وأصغت لتعرف إن كان يتنفس أم لا.. ثم نظرت صوب البحر.

- وودت لو أغتسل، إلا أن الماء غير مألوف.. أي ماء هو؟ مالح ومر؟!

- اغتسلي به، فهو ماء صحي.

- حقًّا؟

- حقًّا.. وأدفأ من ماء الجدول.. ماء الجدول هنا بارد كالثلج.

ذهبتُ.. على الصخور يتواثب ويغني شؤبوب من الماء الوضاء المتحرك كالزئبق، وفيه تتقلب أوراق الخريف بمرح. إنها لروعة!.. غسلت يدي ووجهي، وملأت السخان بالماء، وعدت، لأرى المرأة من خلال الأجمة تزحف على ركبتيها على الأرض وبين الصخور، وهي تتلفت في قلق.

قلت:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا بك؟

ارتعبت، واريدَّ لونها، تخفي شيئاً خلف ظهرها.

وحدّست فقلت لها:

- أعطينيها.. سأدفنها.

- يا عزيزي! كيف؟.. يجب أن تدفن تحت الأرض.. يجب أن ترد إلى الأرض..

واستدارت جانباً، وأعطتني كتلة رطبة ثقيلة، وطلبت مني بخفوت وخجل:

- اعمل أحسن واحفر عميقاً في الأرض، من أجل المسيح.. أشفق على ابني، وافعل بصدق..

.. عندما عدت رأيتها تسير مترنحة مادة يدها إلى الأمام من جانب البحر، وتورتها مبللة حتى وسطها، وقد تورد وجهها قليلاً وكأنه يتنور من الداخل. ساعدتها في الوصول إلى النار مفكراً بدهشة: «أية قوة حيوانية»!

ثم شربنا الشاي مع العسل. وسألتني بخفوت:

- هل تركت المدرسة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نعم تركتها!

- صرفت فلوسك على الخمر؟

- كليًّا يا أم!

- يا لك! أتذكرك في سوخومي. لاحظت أنك تعاركت مع الرئيس على الأجر، ففكرت في نفسي: لابد أنه سكير ولذلك فهو جسور إلى هذا الحد!

وكانت طوال الوقت تنظر بمؤخر عينيها الزرقاوين تحت الأجمة حيث نام ابن «أوريول» الجديد بهدود، لاعقة العسل من شفتيها البارزتين متلذذة.

- كيف سيعيش؟!

وتنهدت وهي تتساءل وترمقني بنظراتها:

- أنت ساعدتني.. شكراً.. ولكن لا أعرف هل هذا حسن بالنسبة له..

شربت الشاي، وأكلت، ورسمت علامة الصليب، وبينما كنت أجمع أشيائى، كانت هي تتمايل ناعسة، هوَّمتْ، وفكرت في شيء ما ناظرة إلى الأرض بعينين حال لونهما من جديد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم شرعت تنهض، فتساءلتُ:

- أحقًّا تذهبين؟

- أذهب!

- أوه، يا أم تمهَّلي!

- ثم قلت لها:

- والأم العذراء.. أعطينيه!

- أنا أحمله.. شكراً.

وتجادلنا، وتراجعت هي، وسرنا كتفاً بكتف. ثم قالت:

- ليتني لا أقع! ووضعت يدها على كتفي.

كان ساكن الأرض الروسية الجديد، إنسان المصير المجهول، يستنشق من مخريه برصانة وهو مستلق على ذراعي.

وكان البحر يرسل رشاشاً ويصطخب، وتهامست الآجام، ولمعت الشمس، منحدرة من أوجها.

سرنا على مهل، وأحياناً كانت الأم تتوقف، مستنشقة نفساً عميقاً، وترفع رأسها إلى فوق، وتتلفت إلى البحر، وإلى الغابة، وإلي الجبال، ثم تنظر في وجه ابنها. ومرة أخرى كانت عيناها المخضلتان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدموع العذاب صافيتين بشكل مذهل. ومرة أخرى اكتسبتا لونا، والتهبتا بالنار الزرقاء لحب لا ينضب.

ومرة قالت وقد توقفت:

- يا إلهي.. أيها الرب.. ما ألطف هذا.. ما ألطفه!

ووددت لو أسير وأسير هكذا حتى نهاية العالم، وأن ينمو ابني في حرية قرب ثدي أمه، ابني العزيز..

والبحر يصخب ويصخب..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العجوز إينزر جيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١

اسمعت إلى هذه الحكايات قرب أكرمان، في بيسارابيا، على ساحل البحر.

ذات مساء خرج فريق المولداف الذي كنت أشتغل معه إلى ساحل البحر، بعد الانتهاء من جمع العنب نهاراً، وبقيت أنا والعجوز إيزرجيل تحت ظل كثيف من عرائش العنب، وخلدنا إلى الصمت مستلقين على الأرض، ناظرين إلى أشباح الناس المتجهين إلى البحر وهي تذوب في ظلمة الليل الحالكة.

ساروا وغنوا وتضاحكوا، الرجال بلون البرونز لهم شوارب سود واجفة، وخصلات كثة جعداء نازلة حتى الأكتاف، في سُتَر قصيرة، وسراويل عريضة. والنساء والفتيات مرحات لدنات، لهن عيون زرق داكنة، وبلون البرونز أيضاً. كانت شعورهن الحريرية السوداء مسترسلة، وكان النسيم الدافئ، عندما يداعبها، يحرّك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصكوكات المعقودة فيها فترسل رنيناً. سرى النسيم مثل موجة عريضة موزونة، إلا أنه كان يبدو أحياناً وكأنه قفز عبر شيء غير منظور، مولدا هَبّة قوية ناثراً شعور النساء فتبدو مثل أعراف خيالية تلتف حول رؤوسهن. وكان هذا يجعل النساء أسطوريات غريبات. ظللن يبتعدن عنا، وقد خلع الليل والخيال عليهن ثياباً تزداد روعة.

عزف شخص على كمان... وغنت فتاة بصوت رخيم، وارتفع ضحك... كان الهواء مضمَّخاً برائحة البحر الحادة، والتبخرات الدسمة لأرض أترعها المطر بغزارة قبيل المساء. وما تزال السماء مسرحاً لقطع من الغيوم زغبية ذات أشكال وألوان غريبة، فهي هنا رقيقة مثل أعمدة الدخان، يمامية وزرقاء رمادية، وهي هناك حادة، مثل كسر الصخور، سوداء مغبشة أو بنية. وبينها كانت رقع من السماء زرقاء داكنة تلمع برقة مزدانة بنجوم ذهبية. وكل هذا – الأصوات والروائح، وكأنه خرج من بطن هذا السهب، الذي ازدرد في حياته الكثير من اللحم البشري، وشرب الدماء، فأصبح من جَرَّاء ذلك، على ما أظن، دسماً وسخيًّا على هذا النحو. سقطت علينا ظلال الأوراق المخرمة، وتغطينا أنا والعجوز بها، وكأنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شبكة. وفي السهب، إلى يسارنا، طافت ظلال الغيوم المشبعة بألق البدر الأزرق، فصارت شفافة منيرة.

- انظر إلى لارا يسير هناك!

نظرت إلى حيث أشارت العجوز بيدها المرتعشة ذات الأصابع المعوجَّة، ورأيت هناك ظلالاً تتحرك، وكانت كثيرة، سار واحد منها، وهو أقتم وأكثف من الظلال الأخرى، سيراً أسرع وأخفض من أشقائه. كان ظل قطعة من السحاب كانت تعوم أدنى إلى الأرض من السحب الأخرى، وأسرع من غيرها.

قلت:

- لا أحد هناك.

- أنت أكثر عمى مني، أنا العجوز! انظر، هناك، إنه قادم يركض في السهب.

أعدت النظر، فلم أر في هذه المرة أيضاً غير الظلال.

- هذا ظل! فلماذا تسميه لارا؟

- لأنه هو. فقد صار الآن ظلاً - حان الأوان! إنه يعيش آلاف السنين، وقد جففت الشمس جسمه، ودمه، وعظامه،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونثرتها الريح. هذا ما يفعله الرب بالإنسان جزاء تكبره!

- قصّ عليَّ كيف كان ذلك!

سألت العجوز شاعراً بأنني أمام حكاية من الحكايات المشهورة التي نشأتْ في السهوب.

وقصَّت على هذه الحكاية...

«مضت آلاف كثيرة من السنين على هذا الحادث.. هنا بعيداً وراء البحر، عند مشرق الشمس، توجد بلاد النهر الكبير.

في تلك البلاد تعطي كل ورقة من أوراق الشجر، وكل نصل من أنصال الشعب ظلًّا يكفي ليحتمي الإنسان به من الشمس الشديدة الحرارة هناك.

والأرض بمثل هذا السخاء في تلك البلاد!

كانت تعيش هناك قبيلة جبارة من قوم كانوا يرعون الماشية، ويصرفون على صيد الحيوانات قوتهم وشجاعتهم، ويولمون بعد الصيد ويغنون الأغاني، ويغازلون الفتيات.

ذات مرة أثناء الوليمة، اختطف نسر هوى من السماء من بينهم فتاة سوداء الشعر رقيقة كالليل. والسهام التي أطلقها الرجال عليه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ارتدت عائداً إلى الأرض. عند ذاك انطلقوا يبحثون عن الفتاة، إلا أنهم لم يجدوها . ونسوها، مثلما ينسون كل شيء على الأرض.

وتنهدت العجوز، وصمتت. ورن صوتها الضعيف، وكأنما تهامست فيه كل القرون المنسية المتجسدة في صدرها بظلال الذكريات. وردد البحر بنبرة خافتة بداية أسطورة من الأساطير القديمة التي ربما تكونت على سواحله.

«إلا أنها عادت بنفسها بعد عشرين عاماً. وكان معها فتى جميل وقوي مثلما كانت هي قبل عشرين عاماً. وحين سألوها أين كانت، حكت أن النسر حملها إلى الجبال، وعاش معها هناك عيشة الزوج والزوجة. وهذا ابنه، والأب رحل من الدنيا، عندما أصابه العجز، حلَّق عالياً في السماء للمرة الأخيرة. وطوى جناحيه، وهوى ثقيلاً من ارتفاع شاهق على الصخور الجبلية الحادة، وتحطم عليها ومات..

نظر الجميع بذهول إلى ابن النسر، ورأوا أنه لا يفضل عليهم في شيء سوى أن عينيه كانتا باردتين وفخورتين مثل عينيْ ملك الطيور.

وتحدثوا معه، فكان يجيب، حين يريد أو يعتصم بالصمت،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحين جاء كبار شيوخ القبيلة تحدث معهم حديث الند للند. فأشعرهم هذا بالمهانة وقالوا له، بعد أن نعتوه بالسهم الذي لم يريّش، ولم يُبْرَ سنانه بعد، أنهم محترمون يطيعهم آلاف من أمثاله وآلاف أكبر منه سنًّا بمرتين. إلا أنه أجابهم بجرأة وهو يحدّق بهم، أن لا أمثال له، وإذا كان الجميع يحترمونه، فإنه لا يريد ذلك. أوه!.. عند ذاك غضبوا غاية الغضب.. وقالوا:

- لا مكان له بيننا! فليذهب حيث يشاء.

وضحك، وسار إلى حيث نازعته نفسه - إلى فتاة جميلة كانت تحدّق فيه، سار إليها، وحين اقترب منها عانقها. وكانت ابنة أحد الشيوخ الذين استنكروه. وعلى الرغم من جماله دفعته عنها لأنها خافت من أبيها. دفعته عنها، وابتعدت، فضربها، وعندما وقعت وضع قدمه على صدرها حتى تفجر الدم من شفتيها إلى السماء، زفرت الفتاة، وتلوت كالأفعى، وماتت.

وكل الذين شاهدوا ذلك سمَّرهم الرعب، فهذه أول مرة تُقتل امرأة أمامهم هذه القتلة. وظل الجميع صامتين وقتاً طويلاً ينظرون إليها راقدة مفتوحة العينين دامية الثغر، وينظرون إليه وقد وقف وحيداً ضد الجميع على مقربة منها، وكان أنوفاً لم يخفض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رأسه وكأنما يستفز ليُعاقب. وبعد ذلك، حين عاد إليهم صوابهم، أمسكوه، وشدوا وثاقه، وأبقوه كذلك واجدين قتله في تلك اللحظة أمراً هيناً للغاية، ولا يرضيهم».

تقدم الليل، واشتدت حلكته ممتلئاً بأصوات خافتة غريبة وفي السهب صفّرت سناجب السهوب، وارتعشت في أوراق الكروم زقزقة الجنادب الزجاجية، وتنفست الأوراق، وتهامست، وشحب قرص البدر التمام الذي كان من قبل أحمر كالدم مبتعداً عن الأرض. شحب وأفاض على السهب عتمة ضاربة إلى الزرقة..

«وهكذا اجتمعوا ليفكروا في عقاب يناسب الجرم... أرادوا أن يمزقوه بالخيول - ولكن ذلك بدا لهم قليلاً، فكروا في أن يرموه جميعاً بالنبال، ولكنهم عدلوا عن ذلك، واقترحوا حرقه، إلا أن دخان النار سيمنعهم من رؤية عذابه، اقترحوا أشياء كثيرة، ولم يجدوا شيئاً طيباً يزوق للجميع. وأمه راكعة أمامهم على ركبتيها صامتة لا تجد دموعاً ولا كلمات تستدر بها شفقتهم.

وتحدثوا هم طويلاً، وهنا قال حكيم بعد تفكير طويل:

- لنسأله لماذا فعل ذلك؟

وسألوه عن ذلك فقال:

- فكوا وثاقي! لن أتكلم وأنا مشدود الوثاق!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعندما فكوا وثاقه سأل:

- ماذا تبتغون؟

سأل وكأنما كانوا عبيداً..

قال الحكيم:

- لقد سمعت...

- لماذا أشرح لكم أفعالي؟

- لتكون مفهوماً لنا. اسمع أيها الأنوف، فأنت هالك على أية حال... دعنا نفهم ما فعلته. إننا سنبقي أحياء، ويفيدنا أن نعلم أكثر مما نعلم...

- حسناً، سأتكلم، رغم أنني، ربما لا أفهم ما حدث فهماً صائباً. قتلتها لظني أنها دفعتني... وكنت بحاجة إليها.

فقالوا له:

- لكنها ليست لك!

- أحقًّا أنكم تتصرفون بما هو لكم فقط؟ أرى أن لكل إنسان لساناً ويدين ورجلين فقط.. ولكنه يملك حيوانات ونساء وأرضاً.. وأشياء أخرى كثيرة...

فردوا عليه قائلين إن الإنسان يدفع عن كل ما يأخذه: بعقله وقوته، وأحياناً بحياته. فرد هو أنه يريد أن يحتفظ بنفسه كاملاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتحدثوا طويلاً معه حتى رأوا، في آخر الأمر، أنه يعتبر نفسه الأول على الأرض، ولا يرى شيئاً آخر غير نفسه.

بل وداخل الرعب جميعهم حين أدركوا الوحدة التي حكم على نفسه بها. لم تكن له قبيلة ولا أم ولا زوجة، ولم يكن يريد شيئاً من هذا.

حين رأى الناس ذلك شرعوا يتبادلون الرأى ثانية في طريقة عقابه. إلا أنهم لم يتحدثوا طويلاً في هذه المرة وتكلم ذلك الحكيم الذي لم يعق محاكمتهم له:

- علي رِسْلكم! العقاب موجود. وهو رهيب. وليس بوسعكم أن تبتكروا مثله في ألف من السنين! عقابه فيه نفسه. أطلقوا سراحه، وليكن طليقاً، ذلك هو عقابه!

وفي تلك اللحظة حدث شيء عظيم. انفجر الرعد في السماوات رغم خلوها من السحب. ولك لأن القوي السماوية صادقت على كلام الحكيم. وانحنى الجميع وتفرقوا.

أما هذا الشاب الذي أطلق عليه الآن اسم لارا، أي المرفوض المنبوذ، فقد ضحك ضحكاً عالياً في أثر الناس الذين نبذوه، ضحك وبقى وحيداً، طليقاً مثل أبيه. بيد أن أباه لم يكن إنساناً.. أما هو فكان إنساناً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهكذا أصبح يعيش طليقاً كالطير. وكان يأتي إلى القبيلة، ويسلب الماشية والفتيات، وكل ما اشتهى. وكانوا يرمونه بالسهام إلا أن السهام لم تستطع النفاذ إلى جسمه الذي غطّاه العقاب المقدس بدرع غير مرئي. وكان حاذقاً، كاسراً، قويًّا، قاسياً، لم يلتق بالناس وجهاً لوجه. كانوا يرونه من بعيد فقط. وظل زمناً طويلاً وحيداً هكذا يحوم حول الناس - زمناً طويلاً لا يقدر بعشرات السنين. بيد أنه اقترب من الناس ذات مرة، ولما هجموا عليه، لم يتحرك من مكانه، ولم يبد أية بادرة للدفاع عن نفسه. ساعتئذ حدس أحدهم الأمر، وصاح:

- لا تمسُّوه! إنه يريد أن يموت!

وتوقف الجميع غير راغبين في التخفيف عن حكم من اجترم في حقهم، غير مريدين قتله. توقفوا وضحكوا منه.

وارتجف وهو يسمع هذا الضحك، وظل يبحث عن شيء في صدره، ماسكاً صدره بيديه. وفجأة هجم على الناس رافعاً صخرة، إلا أنهم تحاشوا ضرباته، ولم يوجهوا له ضربة واحدة. عندئذ سقط على الأرض متعباً صارخاً صرخة حزينة. وتنحى الناس ناحية، راقبوه. نهض، ورفع سكيناً أضاعها أحدهم أثناء الصراع معه، وطعن بها صدره. إلا أن السكين كُسرت وكأنما ضربت صخرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فسقط ثانية على الأرض، وظل ينطح فيها رأسه وقتاً طويلاً. إلا أن الأرض ارتدت عنه، وتجوفت تحت ضربات رأسه.

وقال الناس فرحين:

- لا يسعه الموت!

وانصرفوا وتركوه. رقد على الأرض ووجهه إلى فوق، ورأى نسوراً عظيمة تحلِّق كنقاط سود عالياً في السماء. وكان في عينيه من الحنين ما يمكن أن يسمم أهل الأرض جميعاً. وهكذا بقى منذ ذلك الحين وحيداً طليقاً منتظراً الموت. وها هو يطوف ويطوف في كل مكان.. وأنت ترى أن صار كالظل، وسيبقى على ذلك إلى الأبد!

وهو لا يفهم كلام الناس ولا تصرفاتهم - لا يفهم شيئاً. ولا يزال يبحث ويجوب، ويجوب. ليس له حياة، والموت لا يبتسم له. وليس له مكان بين الناس.... وهكذا عوقب جزاء تكبره!».

تنهدت العجوز وسكتت، واهتز رأسها اهتزازاً غريباً بضع مرات، وهو منطوٍ على صدرها.

نظرت إليها. وخيل لي أن النعاس يغلبها وحملني شيء على أن أشفق عليها إشفاقاً مريعاً. لقد قصّت خاتمة الحكاية بصوت مرفوع مهدد، ومع ذلك فقد كانت في هذا الصوت نبرة خائفة مسترقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وترامى على الساحل غناء – غناء غريب. في البداية غنى صوت نسائي رخيم، غني نغمتين أو ثلاثاً، ثم صدر صوت آخر بدأ الأغنية من البداية، وظل الصوت الأول يسابقه.. ودخل الأغنية ثالث ورابع وخامس على نفس المنوال. وفجأة غنت الأغنية ذاتها أصوات (كورس) من الرجال.

رنَّ كل صوت نسائي على انفراد تام، وبدت جميع الأصوات مثل جداول متعددة الألوان تتدحرج من علٍ على أفاريز، متوثبة مجلجلة، منصبة في الموجة الكثيفة للأصوات الرجالية المتصاعدة إلى الأعالي بانسياب، تتدحرج وتغرق في هذه الموجة، وتفلت منها، وتطغى عليها، وتحلق من جديد عالياً إلى فوق، يسابق بعضها بعضاً، نقية قوية.

ولم يكن ضجيج الموج مسموعاً وراء الأصوات..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٧

هل سمعت الناس في مكان ما يغنون على هذا النحو؟..

سألت إيزرجيل رافعة رأسها، مبتسمة بفمها الخالي من الأسنان.

- لم أسمع.. لم أسمع قط...

- ولن تسمع. نحن نحب الغناء. والجميلون وحدهم يحسنون الغناء، الجميلون الذين يحبون أن يعيشوا. ونحن نحب أن نعيش. انظر - هل تعب من العمل طوال النهار أولئك الذين يغنون هناك؟ عملوا منذ الشروق حتى الغروب، وها هم يغنون!

والذين لا يعرفون كيف يعيشون استلقوا لينامو. والذين يعرفون الحياة يغنون هناك.

فابتدرتها قائلاً:

- ولكن الصحة...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- الصحة دائماً كافية للعمر. الصحة! أمن المعقول أنك إذا كنت تملك نقوداً لا تنفقها؟ والصحة ذهب أيضاً. أتعرف ماذا فعلت عندما كنت شابة؟ كنت أحوط الأبسطة من الشروق حتى الغروب، لا أكاد أنهض. وكنت خفيفة الحركة مثل شعاع الشمس، بينما كان عليّ أن أجلس بلا حراك كالحجر. وكنت أجلس حتى كانت عظامي كلها تئن. ولكن حين يجنُّ الليل كنت أركض نحو من أحببت، نتبادل القبل. وهكذا ركضت ثلاثة أشهر حتى زال الحب. كنت حينئذ أقضي معه الليالي بطولها.

ومع ذلك عمّرت إلى سني هذه - لم ينضب دمي قبل الأوان! وكم أحببت! وكم قبلات نلتُ وأعطيت!..

نظرت في وجهها. ما زالت عيناها السوداوان كامدتين، لم تمدهما الذكرى برواء. وأضاء البدر شفتيها الجافتين المتشققتين، ودقنها المدبب الذي نمت عليه بضع شعرات شائبة، والأنف المتغضن، المعكوف كأنه منقار البومة. وكانت في مكان الخدين حفرتان سوداوان استقرت في إحداهما خصلة من الشعر الشائب المغبر الطالع من تحت الخرقة الحمراء المشدود بها رأسها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد شققت التجاعيد جلد وجهها ورقبتها ويديها، وكنت أتوقع، عند كل حركة تقوم بها العجوز إيزرجيل، تشقق هذا الجلد الجاف كله، وتهافته مزقاً، حتى ينهض أمامي الهيكل العظمي العاري مع العينين السوداوين الكامدتين.

وشرعت مرة أخرى تقص بصوتها المرتعش:

- كنت أعيش مع أمي قرب فالمي، على شاطيء نهر بيرلات نفسه، وكنت في الخامسة عشرة من عمري، عندما ظهر هو في ضيعتنا.

كان مديد القامة، لَدِناً، أسود الشاربين، مرحاً. يجلس في قارب، ويصيح في شباكنا بصوت رنّان: «هاي، ألا يوجد عندكم نبيذ، وشيء من الطعام لي؟» نظرت في الشباك من خلال أغصان شجرة بلوط، فرأيت النهر كله بلون أزرق من ضوء القمر، بينما هو ، في قميص أبيض، ووشاح عريض نهاياته مسبلان على الجانب، واقف رِجلاً في القارب، والرِّجل الأخرى على الشاطيء. وهو يتمايل ويترنم بشيء. وحين رآني قال: «أية حسناء تعيش هنا!.. ولا أعرف هذا!». وكأنه كان يعرف كل الحسناوات قبلي! فقدمت له نبيذاً ولحم خنزير مسلوقاً.. وبعد أربعة أيام سلمته نفسي كلها..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنا نجوب في القارب في الليالي دائماً. يأتي ويصفر مثل سنجاب السهب، فأنط أنا، كالسمكة، إلى الشباك المطل على النهر. ونخرج.. كان صياد سمك من نهر بروت، وفيما بعد، حين عرفت أمي كل شيء، وضربتني، راح يغريني بالهروب معه إلى دوبرودجا، وأبعد، إلى دلتا الدانوب. ولكن إعجابي به قد فتر آنذاك - لا شيء عنده غير الغناء والقبلات! وقد مللت فعلاً. وفي ذلك الوقت كانت عصابة من الجوزوليين سكان الكربات تجوب تلك الأنحاء، وكانت لهم فتيات لطيفات هنا.. وكانت حياتهن مرحة حقاً. فمثلاً تنتظر إحداهن فتاها الكرباتي مليًا، وتفكر أنه قد وقع في السجن، أو قتل في عراك - وفجأة يأتي إليها وحيداً أو مع رفيقين أو ثلاثة رفاق، وكأنه سقط من السماء. وقد جاء بهدايا غنية - فقد كان من السهل عليهم نيلها! ويولم عندها ولائم ويشبب بها أمام رفاقه.. أما هي فيطربها ذلك. سألت ذات مرة إحدى صديقاتي التي كان ينزل عندها فتى جوزولي، أن تريني إياهم..

ماذا كان اسمها؟

نسيت.. أخذت أنسى كل شيء الآن. فقد مضى زمن طويل على ذلك الحين حتى لينسى كل شيء! وقد عرّفتني على فتى لطيف.. كان أصهب كله - شارباه وشعره الأجعد!.. رأسه يشع كالنار،

وكان حزيناً جدًّا، يرق في بعض الأحيان، ويزأر كالحيوان ويتشاجر في أحيان أخرى . ذات مرة صفعني على وجهي.. أما أنا فقد وثبت على صدره كالقطة، وغرزت أسناني في خده.. ومنذ ذلك الحين صارت على خده غمّازة، وكان يهوى تقبيلي لها.

فسألتها:

- وأين ذهب صياد السمك؟!

telegram: @mbooks90

- صياد السمك؟.. هنا. انضم إلى جماعة من الجوزوليين. في البداية ظل يستميلني، ويهددني بإلقائى في الماء، وفيما بعد لا شيء، تعلق بهم، وعاشر فتاة أخرى.. وقد شنقا سوية.. صياد السمك والجوزولي.. وخرجت لأنظر كيف صُلبا. كان ذلك في دوبرودوجا. خرج صياد السمك إلى الشنق ممتقع الوجه يبكي، بينما كان الجوزولي يدخن غليوناً. يسير ويدخن، ويداه في جيبه، وأحد شاربيه مسبل على كتفه، والآخر متدل على صدره. وعندما رآني أخرج الغليون من فمه وصاح: «وداعاً!».. وقد حزنت عليه عاماً كاملاً.. آه!.. حدث ذلك عندما أرادوا العودة إلى الكربات. ونزلوا عند روماني للوداع، وهناك قبضوا عليهما، الاثنان فقط، وقتلوا بضعة، وفر الآخرون.. على أية حال دفع الروماني الثمن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيما بعد.. أحرقت المزرعة والطاحونة، والقمح كله. وصار شحاذاً.

سألتها:

- أنت فعلت ذلك؟

أجابت:

- كان للجوزوليين أصدقاء كثيرون، ولست أنا وحدي.. والذي كان أحسن صديق لهم أقام لهم التعزية...

- كان الغناء على ساحل البحر قد سكت، وكان ضجيج أمواج البحر وحده يرد على العجوز - ضجيج عميق متمرد، كان صدًى مجيداً للحكاية عن الحياة المتمردة. وأخذ الليل يرق، ويزهر فيه أكثر فأكثر ألق القمر المائل إلى الزرقة، وقد صارت الأصوات المبهمة لحياة سكانه المجهولين أهدأ وقد غطت عليها رجرجة الموج المتنامية.. لأن الريح قد اشتدت.

ثم إنني أحببت تركيًّا. عشت في حريمه في مدينة سكوتاري. عشت أسبوعاً كاملاً ولا بأس... ولكنني ضجرت... نساء، ونساء فقط... كان له ثمانٍ... اليوم بطوله يأكلن وينمن، ويثرثرن بكلام سفيه.. أو يتشاتمن، ويقأقئن كالدجاج...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان هذا التركي قد تجاوز الشباب، أشيب، بادي العظمة غنيًّا. وكان يتكلم كالسلطان.. كانت عيناه سوداوين.. عينين نافذتين..

تنفذان إلى النفس رأساً. وكان يحب الصلاة كثيراً. وقد رأيته في مدينة بوكوريشتي.. يسير في السوق كقيصر، وينظر بعظمة ومهابة. وابتسمت له. وفي ذلك المساء ذاته اختطفوني من الشارع، وحملوني إليه. وكان يتاجر بخشب الصندل والنخل، وقد جاء إلى بوكوريشتي ليشتري شيئاً. قال لي: هل تذهبين معي؟ قلت: نعم، أذهب! - حسناً. وسافرت. كان هذا التركي واسع الثراء. وكان له ابن، صبي أسود الشعر، لدن الأعطاف.. في السادسة عشرة من عمره. وقد هربت معه من التركي...

هربت إلى بلغاريا، إلى لوم - بالانكا... وهناك طعنتني بلغارية بسكين في صدري غيرةَ على خطيبها، أو زوجها - لا أتذكر.

ولزمني المرض طويلاً في أحد الأديرة. دير للنساء. واعتنت بي فتاة لولونية.. أتذكر أن أخاها، وهو كاهن أيضاً، كان يأتي إليها من دير آخر - بالقرب من أرتسر - بالانكا - كان يتلوّى أمامي كالدودة.. وعندما تعافيت ذهبت معه.. إلى وطنه بولونيا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- علي مهلك!.. وأين التركي الصبي؟

- الصبي؟.. مات الصبي. من الحنين إلى الأهل، أو من الحب..

صار يجف مثل شجيرة لم تقو بعد، في حين أرمضتها الشمس كثيراً جدًّا .. جف على هذا النحو.. وأنا أتذكره، راقداً شفافاً مزرقاً مثل قطعة من الجليد، ولكن الحب ظل يتوقد فيه.. يتوسل أن أنحني وأقبله. وقد أحببته، وأتذكر أنني قبلته كثيراً.. ثم تردت حالته تماماً، ولم يتحرك تقريباً. كان يرقد شاكياً مثل متسول يتوسل إليّ أن أستلقي إلى جانبه، وأدفئه.

وكنت أستلقي، فيتوهج كله في الحال. وذات مرة استيقظت فإذا هو بارد.. ميت.. وبكيت عليه. ومن يدري؟! ربما أنا التي قتلته.. كنت حينذاك أكبر منه مرتين. وكنت قوية ريانة.. أما هو - فأي شيء؟.. صبي!.

وتحسَّرتُ، ولأول مرة رأيتها ترسم علامة الصليب ثلاث مرات هامسة بشيء من شفتيها الجافتين.

قلت أحثها على الكلام:

- ثم سافرت إلى بولونيا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نعم.. مع البولوني الصغير ذاك. وكان مضحكًا ولئيمًا. عندما كان بحاجة إلى امرأة، كان يداعبني كالقط، ويسيل من لسانه عسل حار، وعندما كان لا يريدني يقرعني بكلمات كالسوط. ذات مرة خرجنا إلى شاطيء النهر، وهناك قال لي كلمة مرة جارحة.

"أوه! أوه!.. غضبت! وغليت كالقطران! ورفعته على ذراعي كالطفل - كان صغير الجسم - ورفعته إلى فوق، وعصرت جنبيه حتى ازرقّ كله. ورميته من الشاطىء إلى النهر. وصرخ. صرخ بشكل مضحك. ونظرت إليه من فوق، وكان يتخبط في النهر. وانصرفت عندئذٍ. ولم ألتق به بعد هذا. وكنت حسنة الحظ في ذلك: إذ لم أكن ألتقي فيما بعد بالذين أحببتهم يوماً ما. إنها لقاءات غير حسنة، مثل اللقاءات مع الأموات.

صمتت العجوز، وتنهدت. وتخيلت الذين بعثتهم أحياء.

ها هو الجوزولي ذو الشاربين الأصهب كالنار، يسير إلى الموت مدخناً غليونه بهدوء. كانت له في أغلب الظن عينان زرقاوان باردتان كانتا تنظران إلى كل شيء بتركيز وثبات.

وها هو صياد السمك الأسود الشعر من بروت إلى جانبه غير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

راغب في الموت، وفي وجهه الممتقع من الحنين قبيل المنية، كمدت عيناه المرحتان، وتدلى بحزن شارباه المبللان بالدموع على طرفيْ فمه الملتوي. وهذا هو التركي العجوز المهيب القدري في أغلب الظن والمستبد، وإلى جانبه ابنه الشاحب، زهرة الشرق الهشة، الذي سممته القبلات. وهذا البولوني المزهو اللطيف والقاسي، الحلو اللسان والبارد.. كلهم ليسوا غير ظلال شاحبة، أما تلك التي قبَّلوها فجالسة إلى جانبي حية، ولكن الزمن قد أيبسها، فهي بلا جسم، ولا دم، وقلبها خاوٍ من كل رغبة، وعيناها خاليتان من أي نور - إنها تكاد تكون ظلًّا أيضاً.

وتابعت قولها:

- في بولونيا تعسرت حالي. هناك يعيش قوم باردون كذابون. ولم أعرف لسانهم الثعباني. كلهم يهمسون.. فبماذا يهمسون؟!

إن الله هو الذي أعطاهم هذا اللسان الثعباني لأنهم كذابون. حينذاك سافرت دون أن أعلم إلى أين، ورأيت كيف كانوا يستعدون للعصيان عليكم، أنتم الروس. وصلت حتى بلدة بوخني. وقد اشتراني يهودي، لا لنفسه، بل ليتاجر بي.

وقد قبلت بذلك. فلكي تعيش يجب أن تجيد عملاً. ولم أكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجيد عملاً، فدفعت نفسي ثمناً لذلك. ولكنني فكرت عندئذ بأنني لو أحصل على بعض النقود لأعود إلى موطني «بيرلات» فسأحطم القيود مهما كانت قوية. وعشت هناك. وجاء إليَّ بولونيون أغنياء، ونزلوا في ضيافتي. وكلفهم ذلك غالياً. كانوا يتعاركون عليَّ، بل أفلس بعضهم. وسعى أحدهم مدة طويلة في سبيل الظفر بي، وذات مرة فعل هذه الفعلة: جاء وراءه خادم يحمل كيساً. وتناول البولوني هذا الكيس، وصبه فوق رأسي. وتساقطت القطع الذهبية على رأسي، وأطربني سماع رنينها حين وقعت على الأرض. ولكنني طردت البولوني رغم ذلك.

كان له وجه ممتلىء مبلل، وبطن مثل وسادة كبيرة. وكان ينظر نظرة خنزير شبعان. نعم، طردته، بالرغم من أنه قال بأنه باع كل أراضيه ودوره وخيوله لكي ينثر عليّ الذهب.

آنذاك كنت أحب بولونيا فاضلاً له وجه ممزق. كان وجهه كله ممزقاً طولاً وعرضاً بسيوف الأتراك الذين حاربهم قبل حين في سبيل اليونانيين. هذا إنسان!.. ما شأنه باليونانيين وهو بولوني؟ ولكنه ذهب وحارب معهم ضد أعدائهم. فقطّعوه وسالت إحدى عينيه من الضربات، كما بُترت إصبعان من أصابع كفه اليسرى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أيضاً.. ما شأنه باليونانيين إذا كان هو بولوني؟.. السبب أنه كان يهوى المآثر.

وحين يهوى الإنسان المآثر، يقدر دائماً على إتيانها، ويعرف أين يمكن أن يقوم بها. وفي الحياة، وكما ترى، يوجد دائماً مكان للمآثر. والذين لا يجدونها لأنفسهم إما كسالى أو جبناء أو لا يفهمون الحياة، لأن الناس إذا فهموا الحياة رغب كل واحد في أن يترك ظله فيها بعده. عند ذلك لن تزدرد الحياة الناس بلا أثر... أوه، إن ذلك الممزق كان إنساناً طيباً!

كان مستعداً للذهاب إلى آخر الدنيا ليفعل شيئاً ما. أغلب الظن أن قومك قتلوه أثناء العصيان. لماذا خرجتم لقتل المجر؟ اسكت!..

وإذ أمرتني العجوز إيزرجيل بالسكوت، سكتت هي فجأة مفكرة. ثم استأنفت:

- وعرفت أيضاً مجريًّا. وهرب مني ذات مرة - شتاءً - وفي الربيع فقط، عندما ذاب الثلج وجدوه في الحقل مصاباً برأسه. هكذا!. إن الحب لا يقل عن الطاعون فتكاً بالناس، لو حسبت لما وجدت ضحاياه أقل.. عمَّ كنت أتحدث؟.. عن بولونيا... نعم، هناك لعبت لعبتي الأخيرة. التقيت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بوجيه بولوني.. وكان جميلاً! كالشيطان. وكانت السن قد تقدمت بي، آه، كنت مسنة! في الأربعين من عمري؟ أظن ذلك....

بينما هو كان ما زال فخوراً ومدللاً عندنا، نحن النساء. عزّ عليَّ... نعم. وأراد أن يستحوذ عليّ رأساً، ولكنني لم أستسلم. لم أكن عبدة أبداً، ولا ملكاً لأحد.. وقد أنهيت قضيتي مع اليهودي، وأعطيته نقوداً كثيرة... وكنت أعيش في مدينة كراكوف. حينذاك كنت أملك كلي شيء: خيولاً وذهباً، وخدماً... وكان يزورني، ذلك العفريت الأنوف، وكان يريدني أن أرمي نفسي بين يديه. وتجادلنا...

بل أتذكر أنني خسرت جانباً من جمالي بسبب ذلك. وقد استمر ذلك زمناً طويلاً... وحصلت على مرامي: توسل إليَّ راكعاً على ركبتيه... ولكن ما أن ملكني حتى تركني. عند ذاك أدركت أنني أصبحت عجوزاً.. وآه، لم يكن ذلك حلو المذاق في نفسي! لم يكن حلو المذاق.. فقد وقعت في حب هذا الشيطان... أما هو، فكان يضحك كلما يلتقي بي .. كان وغداً! ويضحك مع الآخرين مني، وكنت أعرف ذلك. وكان يحز في قلبي حزاً مريراً!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكنه كان على مقربة مني، وكنت أتمتع بمحيّاه على أية حال. إلا أنه ذهب معهم ليقاتلكم أيها الروس، فضاقت الدنيا في عينيّ.

وغالبت نفسي ولكنني لم أستطع أن أغلبها.. فعزمت على السفر في أثره. وكان على مقربة من مدينة فارصوفيا، في غابة.

ولكن عندما وصلت عرفت أن قومكم قد هزموهم، وأنه أسير في قرية غير بعيدة.

وقلت لنفسي: يعني لا أراه بعد الآن!. ونازعتني نفسي إلى رؤياه. وصرت أجاهد لأراه.. ارتديت ثياب شحاذة عرجاء، وذهبت ووجهي مشدود، إلى القرية التي كان فيها. كان القوزاق والجنود في كل مكان.. وكلفني البقاء هناك غالياً! وحين عرفت أين يُحجز البولونيون أدركت أن الوصول إلى هناك صعب ولكني كنت بحاجة إلى ذلك. وفي الليل نسللت، ورأيت حارساً يقف في طريقي.. وقد صرت أسمع البولونيون يغنون ويتحدثون بأصوات عالية.. يغنون أغنية واحدة.. إلى أم المسيح.. وهو يغني معهم.. حبيبي أركاديك. وأحسست بمرارة حين تذكرت أن الرجال في الماضي كانوا يزحفون إليّ.. وها قد جاء زمن أزحف فيه أنا إلى رجل، مثلما تزحف الأفعى على الأرض، وربما أنا أزحف لحتفي. ويسمع هذا الحارس، وينحني إلى الأمام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فماذا أفعل؟ نهضت من الأرض، وتقدمت منه. لم تكن معي سكين. وهمست: على مهلك!.. بينما وجّه هذا الجندي الحرية إلى صدري. فقلت له همساً: «لا تتهور وانتظر، واسمع إذا كان لك قلب! ليس عندي ما أقدمه لك، ولكن أتوسل إليك».. أنزل البندقية، وقال لي همساً أيضاً: اذهبي يا امرأة، اذهبي!! ما حاجتك؟ فقلت له: «ابني مسجون هنا.. أنت تفهم، أيها الجندي، إنه ابني! فأنت أيضاً ابن لأخرى، ها؟ فانظر إليَّ - إن لي ابناً مثلك، وهو هناك! دعني أنظر إليه، فقد يموت قريباً.. وقد يقتلونك غداً.. ألا تبكي أمك عليك؟ ألا يؤلمك أن تموت دون أن ترى أمك؟ وسيتألم ابني أيضاً.. فاشفق على نفسك، وعليه، وعليّ - أنا الأم!..»

أوه، كم من الوقت أنفقته في الحديث معه! نزل المطر وبللنا، وهبت الريح وأعولت، ودفعتني مرة في ظهري، ومرة في صدري. ووقفت أتمايل أمام هذا الجندي الحجري.. أما هو فقال: لا! وكلما سمعت كلمته الباردة ازدادت الرغبة في رؤية اركاديك ضراماً في نفسي.. تحدثت وقست الجندي بعيني - كان صغير الجسم، جافًّا، دائم السعال. وسقطت على الأرض أمامه، وأمسكت بركبتيه، وظللت أتوسل إليه بكلمات حارة، وأوقعت الجندي على الأرض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فوقع في الوحل. عند ذاك أدرت وجهه إلى الأرض بسرعة، وضغطت رأسه في بركة الوحل، حتى لا يصرخ.

ولم يصرخ، بل ظل يتحرك محاولاً أن يلقيني عن ظهره. أدخلت رأسه بكلتا يدي أعمق في الوحل. واختنق.. عند ذلك ركضت إلى العنبر حيث كان البولونيون يغنون. وهمست من جوار الحائط: أركايك!.. والبولونيون ذو حدس.. حين سمعوني لم يقطعوا الغناء! وصارت عيناه مقابل عينيّ. قلت له:

هل تستطيع أن تخرج من هنا؟ فقال: نعم. فقلت: تعال إذن.

وهكذا زحف أربعة منهم من تحت ذلك العنبر. ثلاثة وحبيبي أركاديك. وسأل أركاديك: أين الحارس؟ قلت: ها هو راقد!..

وساروا بهدوء شديد منحنين إلى الأرض. كان المطر يهطل، والريح تعوي عالية. وخرجنا من القرية، وسرنا في الغابة صامتين وقتاً طويلاً. سرنا بسرعة. وكان أركاديك يمسك بيدي. كانت كفه حارة مرتعشة. أوه!.. ما أعذب صحبته تلك وهو صامت. كانت هذه الدقائق الأخيرة دقائق حلوة من حياتي المهمومة. ولكننا خرجنا إلى مرج وتوقفنا. وشكرني أربعتهم. أوه، كم تحدثوا معي طويلاً وكثيراً عن شيء ما! ظللت أستمع، وأنظر إلى سيدي البولوني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماذا سيفعل معي؟ عانقني، وكلمني بعظمة. لا أذكر ماذا قال، ولكن ظهر أنه الآن ممتن على إنقاذي له، وأنه سيحبني اعترافاً بذلك.. وركع على ركبتيه أمامي، مبتسماً، وقال لي:

يا ملكتي!. كان لهذا الحد كلباً كذاباً!.. ولكن عند ذاك وجهت له رفسة بقدمي، وهممت بضربه على وجهه لو لم يترنح، ويقفز.. ويقف أمامي جهماً شاحباً.. ويقف أولئك الثلاثة أيضاً متجهمين جميعاً. ويصمت الجميع. نظرت إليهم..

وتملكتني وحشة شديدة آنذاك، على ما أتذكر، وأصابني فتور..

قلت لهم: اذهبوا! وسألني، الكلاب: تعودين إلى هناك لتخبريهم بطريقنا؟ يا لهم من أوغاد لئام! إلا أنهم انصرفوا على أية حال. وعندئذٍ سرت أنا أيضاً.. وفي اليوم التالي قبض جماعتكم عليَّ، ولكنهم أطلقوني سريعاً.. حينئذ عرفت أن الوقت حان لبناء عش، كفاني أن أعيش عيشة الوقواق!

أصبحت ثقيلة حقًّا، ووهن جناحي، وكمد ريشي.. حان الوقت!.. عند ذاك سافرت إلى جاليسيا، ومن هناك إلى دوبوودجا. وها أنا أعيش هنا منذ ثلاثين عاماً تقريباً.

وكان لي زوج مولدافي، مات قبل عام وأنا ما أزال أعيش!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعيش وحيدة.. لا، لست وحيدة، بل مع أولئك.

وأشارت العجوز بيدها إلى البحر. وهناك كان كل شيء هادئاً.

وأحياناً كان يولد صوت قصير خادع، ويموت في الحال.

إنهم يحبونني. كثيراً ما أقص عليهم ألواناً من القصص.. وهم بحاجة إلى ذلك. فهم جميعاً شبان.. وأنا مرتاحة معهم.

أرى، وأقول لنفسي: «كنت من قبل مثلهم.. سوى أن الإنسان في زماني كانت فيه قوة ونار أشد، وبفضل ذلك عاش أمرح وأحسن.. نعم!..».

وصمتت. وأحسست بالكآبة وأنا إلى جانبها. وهوّمت هي أيضاً هازّة رأسَها، وهمست بشيء في خفوت.. ربما كانت تصلي.

نهضت من البحر سحابة سوداء ثقيلة ذات حواف قاسية، شبيهة بسلسلة جبلية. وزحفت على السهب. وانطلقت من أعاليها مزق عني الغيوم، انطلقت أمامها، وأطفأت النجوم واحدة بعد أخرى. وضج البحر. وعلى مسافة غير بعيدة منا بين الكروم سمعت قبلات وهمسات، وتنهدات. ونبح كلب بعيداً في السهب..

وأثارت الريح الأعصاب بروائح غريبة واخزة لباطن الأنف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسقطت من الغيوم على الأرض أسراب كثيفة من الظلال، ودبت عليها، ودبت، واختفت، وظهرت من جديد.. ولم يبق في مكان القمر غير رقعة بيضوية كدرة، وأحياناً كانت مزقة يمامية من غيمة تخفيه تماماً.

وفي بعيد السهب، الأسود والرهيب الآن، وكأنما يتوارى ويخفي في نفسه شيئاً، توهجت أضواء زرق صغيرة. كانت تظهر هنا وهناك لحظة ثم تنطفئ، وكأن بضعة أشخاص متناثرين في السهب متباعدين بعضهم عن بعض كانوا يبحثون فيه عن شيء مشعلين أعواد ثقاب كانت الريح تطفئها في الحال. كانت ألسنة نار زرقاء غريبة جدًّا موحية بشيء أسطوري.

سألتني إيزرجيل:

- هل ترى الشرارات؟

قلت وأومأت لها إلى السهب:

- الزرق تلك؟

- زرق؟ نعم، إنه هي.. يعني تتطاير على أية حال.. لم أعد أراها.. لا أستطيع الآن أن أرى كثيراً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سألت العجوز:

- من أين هذه الشرارات؟

وكنت قد سمعت من قبل شيئاً عن منشأ هذه الشرارات، ولكن أردت أن أسمع كيف تتحدث العجوز إيزرجيل عنها.

- هذه الشرارات من قلب دانكو المحترق. عاش على الأرض قلب كان يشتعل ناراً في يوم من الأيام... وهذه الشرارات منه. سأحكي لك عن ذلك.. حكاية قديمة أيضاً.. شيء قديم، كل شيء قديم! أترى كم يضم الزمان القديم من أشياء! أما الآن فلا شيء من هذا القبيل - لا أفعال، ولا ناس، ولا حكايات مثل حكايات الزمان القديم.. لماذا؟.. قل لي!.. لن تقدر!..

فماذا تعرف أنت؟ وماذا تعرفون أنتم جميعاً، أيها الشبان؟ إيه!.. لينكلم تنظرون في الزمان القديم نظرة جدية. هناك توجد حلول الألغاز كلها... ولكنكم لا تنظرون، ولذلك لا تحسنون العيش.. أمن المعقول أنني لا أرى الحياة؟

أوه، أنا أرى كل شيء، رغم ضعف بصري! وأرى أن الناس لا يعيشون، بل يفيسون ويجربون، ويستنفدون العمر كله في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك. وحين يسلبون أنفسهم بأنفسهم مضيعين الوقت يأخذون بالنحيب على القسمة والنصيب. ما علاقة النصيب هنا؟ كل إنسان نصيب في حد ذاته. الآن أرى أناساً شتى، ولكن لا أرى أقوياء! أين هم؟.. والمتميزون يتضاءلون عدداً.

استغرقت العجوز تفكر أين اختفى من الحياة الأقوياء والمتميزون من الناس، ونظرت، وهي تفكر، إلى السهب المعتم وكأنما تبحث فيه عن جواب.

وانتظرت حكاياتها، ولزمت الصمت خائفاً أن تشذ عن الموضوع إذا سألتها عن الشيء.

وها هي قد بدأت حكايتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

«عاش في قديم الزمان قوم، كانت الغابات المنيعة تحيط رحالهم من ثلاث جهات، وفي الجهة الرابعة سهب. كانوا قوماً مرحين أقوياء وذوي جرأة. وذات مرة جاء زمن عصيب: ظهرت قبائل أخرى من جهة مجهولة، وطردت السكان السابقين إلى قلب الغابة. وكانت في تلك البقعة مستنقعات وظلام، لأن الغابة كانت قديمة، وقد تشابكت أغصانها كثيفة حتى إن السماء لم تكن تُرى من خلالها، وأشعة الشمس لا تكاد تجد لها طريقاً إلى المستنقعات خلال الأوراق الكثيفة. ولكن حين سقطت أشعتها على ماء المستنقعات تصاعدت نتانة كان الناس يموتون بسببها واحداً تلو الآخر. عند ذاك أخذت زوجات هذه القبيلة وأطفالها يبكون، وفكر الآباء، وغرقوا في حزن عميق. وكان من الضروري الخروج من هذه الغابة، وكان لذلك طريقان: أحدهما إلى الوراء، وهناك كان أعداء أشداء أشرار، والآخر إلى الأمام. وهناك كانت تقف أشجار عملاقة متعانقة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلاحم بأغصان جبارة، بعد أن أرسلت جذورها المعقدة عميقاً في حمأ المستنقعات اللزج.

كانت تلك الأشجار الحجرية تقف صامتة لا تتحرك نهاراً في الغبش الرمادي، وتحدق بالناس بإحكام أشد في الأمسيات حين تُشعل النيران. فكان حول هؤلاء الناس دائماً، ليلاً ونهاراً، طوق من الظلام الحالك، وكأنما كان ينوي خنقهم، بينما هم قد تعودوا على رحابة السهب. والأرهب من ذلك أن ضجيجاً عميقاً كان يعم الغابة كلها حين تضرب الريح بأعالي الأشجار، وكأنما كانت تهدد الناس، وتنوح في مآتمهم. وكانوا أناساً أقوياء على أية حال، كان بوسعهم أن يخرجوا للقتال حتى الموت مع الذين انتصروا عليهم ذات مرة، ولكن لم يكن في مقدورهم أن يموتوا في حومة القتال، لأنهم كانوا يحتفظون بوصايا، وإذا ماتوا اختفت معهم من الحياة هذه الوصايا أيضاً. ولهذا قعدوا يفكرون في الليالي الطويلة، في ضجيج الغابة العميق، في نتانة المستنقع المسمومة. كانوا يجلسون وظلال النيران ترقص حولهم رقصة صامتة، فكان يخيل للجميع أنها ليست ظلالا ترقص، بل الأرواح الشريرة السائدة في الغابة والمستنقع تحتفل منتصرة.. ظل الناس جالسين يفكرون. ولكن لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شيء - لا العمل، ولا النساء ينهك أجسام الناس وأرواحهم مثلما تنهكها الأفكار الحزينة.

وَهِنَ الناس من الأفكار.. ولد الرعب بينهم، وقيد أيديهم القوية، وولّدت النساء الذعر ببكائهن على جثث الميتين من النتانة، وعلى مصير الأحياء الذين قيدهم الرعب. وصارت تسمع في الغابة كلمات جبانة، في البداية حيية خافتة، وبعد ذلك عالية أكثر فأكثر.. أرادوا الذهاب إلى العدو، وتقديم حريتهم له هبة. ولم يعد أحد، وقد أرهبه الموت. يخشى حياة العبودية. ... ولكن هنا ظهر دانكو، وأنقذ وحده الجميع».

الظاهر أن العجوز كثيراً ما كانت تتحدث عن قلب دانكو المشتعل. فقد تحدثت بعذوبة ، ورسم صوتها الصارف الأجوف أمامي بوضوح ضجيج لغابة الذي مات الناس التعساء المطرودون وسطها من أنفاس المستنقع المسمومة...

ودانكو أحد أولئك الناس، شاب وسيم. وصاحب جرأة.

فيقول لأصحابه: لن تماط الحجارة عن الطريق بالتفكير. من لا يعمل شيئاً لا يحدث له شيء. فلم نضيِّع قوانا بالتفكير والأسى؟..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انهضوا، ولنسر في الغابة، ونخترقها، فإن لها نهاية لا محالة. لكل شيء في الدنيا نهاية! لنذهب!..

ونظروا إليه، ورأوا أنه أحسن الجميع، لأن في عينيه كان يشع كثير من القوة، والنار الحية.

فقالوا له: قدنا أنت!.. وعندئذ قادهم...

صمتت العجوز، ونظرت إلى السهب حيث راحت الظلمة تتكاثف. وكانت شرارات قلب دانكو المتقد تتوهج في مكان بعيد، وتبدو مثل زهور هوائية زرقاء، مزهرة للحظة فقط.

«وقادهم دانكو، وسار الجميع وراءه في وئام – فقد آمنوا به. وكان طريقاً شاقًّا! الجو مظلم، وفي كل خطوة كان المستنقع يفتح فمه النهم المنتن مبتلعاً الناس، وكانت الأشجار تسد الطريق كجدار جبار. وقد تضافرت أغصانها، وكالأفاعي امتدت الجذور في كل مكان. وكانت كل خطوة تكلف أولئك الناس الكثير من العرق والدم. ساروا زمناً طويلاً.. والغابة تزداد كثافة، والقوى تتضاءل! وأخذوا يتذمرون من دانكو قائلين من العبث أن نلقى المقاليد إليه، وهو شاب غرير. بينما سار هو في مقدمتهم، وكان منشرحاً مشرقاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن ذات مرة هدرت عاصفة ماطرة فوق الغابة، وتهامست الأشجار صماء مرعبة. وتلبد ظلام دامس في الغابة، وكأن كل ما كان في العالم من ليالٍ، منذ مولده حتى ذلك الحين، قد تجمَّع رأساً في الغابة. وسار الناس الصغار بين الأشجار الضخمة، وفي ضجة الرعد المهددة، ساروا، وصفَّرت الأشجار العملاقة مهتزة، ودوت أناشيد غاضبة، وكانت البروق وهي تطير فوق ذرى الغابة، تضيؤها لحظة بنور أزرق بارد، وتختفي سريعاً مثلما ظهرت مفزعة الناس. وكانت الأشجار، وهي تتنور بنور البرق البارد تبدو حية باسطة حول الناس، الخارجين من أسر الظلمة، أذرعاً طويلة معوجة، متشابكة في شبكة كثيفة، محاولة إيقاف الناس. ومن ظلام الأغصان كان يحدق في السائرين شيء مفزع قاتم بارد. كان طريقاً شاقًّا، ، أصاب الناس القنوط، وقد أضناهم الطريق. ولكنهم كانوا يخجلون من الاعتراف بالعجز، فانثالوا جميعاً على دانكو غضاباً حانقين، انثالوا على الرجل الذي يسير في مقدمتهم، وأخذوا يعيرونه بالعجز عن قيادتهم، لا غير!

توقفوا، وفي ضجيج الغابة المنتصر، وفي الظلام المرتجف أخذوا يحاكمون دانكو متعبين حانقين، فقالوا:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنت إنسان تافه ومؤذٍ لنا! قدتنا وأرهقتنا، وستموت عقاباً على ذلك!

- قلتم قدنا فقدتكم! - صاح دانكو مديراً لهم صدره - في نفسي الشجاعة على القيادة، ولهذا قدتكم! أما أنتم، فماذا فعلتم لتعينوا أنفسكم؟ سرتم فقط، ولم تقدروا على الاحتفاظ بقوة لطريق أطول.... سرتم فقط وسرتم مثل قطيع من الأغنام!

وزادت هذه الكلمات من غضبهم، فزمجروا:

- ستموت! ستموت!

ودوّت الغابة، ودوّت مجيبةً على صراخهم، ومزق البرق الليل إرباً. ونظر دانكو إلى أولئك الذين تحمَّل الجهد من أجلهم، ورأى أنهم كالبهائم. التف حوله كثيرون، ولكن لم تبد على وجوههم كرامة وكان من المستحيل أن ينتظر منهم رأفة. وحينذاك غلى الحنق في قلبه، ولكنه انطفأ من الإشفاق على الناس. كان يحب الناس، ففكر بأنهم قد يهلكون بدونه. والتهب قلبه بنار الرغبة في إنقاذهم، والخر، ج بهم إلى طريق سهل، وعند ذاك لمعت في عينيه أشعة تلك النار الجبارة.. ولما رأوا ذلك ظنوا أنه احتدم غيظاً، ومن ذلك التهبت عيناه بلهب كهذا، وتحفزوا، كالذئاب، منتظرين أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقاتلهم، وصاروا يضيقون حصاره، حتى يسهل عليهم القبض على دانكو والفتك به. إلا أنه فهم فكرتهم، وبسبب ذلك التهب قلبه بشدة، لأن هذه الفكرة ولّدت في نفسه أسى. بينما غنت الغابة أغنيتها العامة وهدر الرعد، وهطل المطر... صاح دانكو بصوت أقوى من الرعد:

- ماذا أعمل للناس؟!

وفجأة شق صدره بيديه، وانتزع منه قلبه، ورفعه فوق رأسه عالياً.

سطع القلب سطوع الشمس، بل وأسطع من الشمس، وصمتت الغابة كلها مضاءة بهذا المشعل.. مشعل المحبة العظيمة للناس، وتطاير الظلام من ضوئه، وهناك عميقاً في الغابة، وقع مرتعشاً في حلق المستنقع المنتن. وصار الناس كالحجارة وقد صعقوا.

صرخ دانكو:

- لنسرْ!

واندفع إلى موضعه في المقدمة حاملاً قلبه المحترق، ومضيئاً به الطريق للناس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انطلقوا وراءَه مسحورين. عند ذاك عادت الغابة إلى الضجيج من جديد هازة أعاليها بدهشة. إلا أن وقْع أقدام الراكضين غطى على الضجيج. ركض الجميع بسرعة وجرأة منجذبين بالمشهد العجيب، مشهد قلب محترق. والآن كانوا يموتون أيضاً، ولكن بلا شكوى ولا دموع. بينما كان دانكو ما يزال في المقدمة، وقلبه ما يزال يتقد ويشتعل!

وفجأة انفرجت الغابة أمامه، انفرجت وتخلفت إلى الوراء كثيفة خرساء، بينما دانكو والناس جميعاً انغمروا فجأة في بحر من ضوء الشمس والهواء النقي المرطب بالمطر. وعاصفة المطر تخلفت هناك، وراءهم، فوق الغابة بينما كانت الشمس تشرق هنا، والسهب يتنفس، والعشب يلمع في ماء المطر، والنهر يتلألأ ذهباً... كان ثمة مساء، ، فبدا النهر من أشعة الغروب أحمر، مثل الدم الذي كان يتدفق شؤبوبا حارًّا من صدر دانكو المشقوق.

ألقى دانكو الأشم الجريء نظرة أمامه على رحابة السهب، ألقى نظرة فرح على الأرض الطليقة، وتبتسم في شمم. ثم سقط، ومات.

ولم يفطن الناس الفرحون المفعمون آمالاً إلى موته، ولم يروا كيف أن قلبه الجريء لا ينفك يسطع إلى جانب جثته. إلا شخص

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واحد حذر لاحظ ذلك، وداس القلب الأشم بقدمه خائفاً من شيء... فتناثر القلب شرارات، وانطفأ....

- هذا هو منشأ شرارات السهب الزرقاء التي تظهر قبيل عاصفة المطر!

الآن، حين أنهت العجوز حكايتها الجميلة، عم السهب سكون رهيب، وكأنما هو أيضاً أصيب بقوة دانكو الجريء الذي أحرق قلبه للناس، ومات دون أن يسألهم مكافأة لنفسه.

غفت العجوز، فنظرتُ إليها وفكرت: كم من الحكايات والذكريات بقيت في ذاكرتها؟.. وفكرت بقلب دانكو المحترق العظيم، وبالخيال الإنساني الذي خلق عدداً لا يحصى من الأساطير الجميلة القوية.

خفقت الريح، وكشفت من تحت الأسمال عن صدر العجوز إيزرجيل اليابس، وهي توغل في النوم. غطيت جسمها العجوز، واستلقيت أيضاً على الأرض بجوارها. كان السهب صامتاً مظلماً. والسحب ما زالت تزحف في السماء ببطء وملل.. وضج البحر ضجيجاً أصمَّ حزيناً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قتلاً للضجر

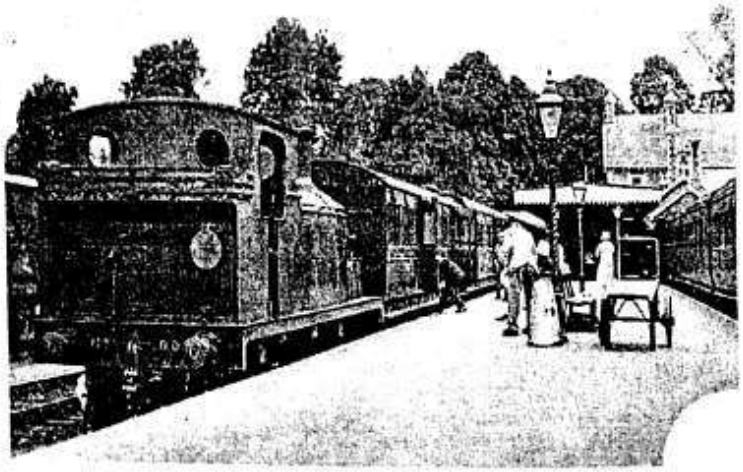

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اختفى قطار المسافرين في السهب البعيد، في بحر القمح الأصفر مثل حيوان هائل نافثاً أعمدة من الدخان الرمادي الثقيل. ومع دخان القطار تلاشى في الهواء القائظ الضجيج الغاضب المعكر، لبضع دقائق، صمت السهل الواسع المقفر الذي أثارت في وسطه محطة القطار الصغير بعزلتها الشعور بالأسى.

وعندما تلاشت ضجة القطار الصماء والحية في الوقت ذاته وزالت تحت قبة السماء الصافية الخالية من الغيوم عاد السكون الموحش إلى سلطانه حول المحطة.

كان السهب أصفر ذهبيًّا، والسماء زرقاء صافية، وكلاهما متراميا لا حد له «كانت الأبنية البنية للمحطة المرمية وسطها توحي بأنها لطخة طارئة أفسدت مركز صورة سوداوية رسمها بولع فنان محروم من الخيال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الساعة الثانية عشرة ظهراً، والرابعة بعد الظهر من كل يوم يصل قطار إلى المحطة قادماً من السهب، ويقف كل قطار دقيقتين فيها. وهذه الدقائق الأربع هي التسلية الرئيسية والوحيدة: إنها تجلب معها انفعالاً لمستخدمي المحطة.

في كل قطار جمهور من الناس المتنوعين المختلفين لباساً. وهم يظهرون لحظة، وتلوح في نوافذ العربات وجوههم المتعبة العجولة الساهية ويدق جرس وصافرات وينطلقون في هدير إلى السهب، إلى البعيد، إلى المدن حيث تغلي حياة صاخبة.

وينظر مستخدمو المحطة إلى تلك الوجوه بتطلع، وبعد توديع القطار يتبادلون فيما بينهم الملاحظات التي التقطت عابرة.

وحولهم يمتد سهب صامت وفوقهم سماء غير عابئة، وفي أفئدتهم حسد مبهم للناس الذين يمرون بهم منطلقين إلى جهة ما بينما هم مقيمون هكذا حبيسون في قفر، عائشون وكأنهم خارج الحياة.

ها هم واقفون، بعد أن ودَّعوا القطار، على رصيف المحطة يشيعون الشريط الأسود بأعينهم وهو يختفي في البحر الذهبي من القمح، صامتون تحت تأثير الحياة التي مرت بهم خطفاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنهم هنا بكامل عددهم تقريباً: مدير المحطة الطيب القلب، الممتلئ الجسم، الأشقر ذو الشاربين القوزاقيين، ومساعده الشاب المائل شعره إلى حمرة، ذو اللحية المدببة، وحارس المحطة لوقا الصغير الجسم الخفيف الحركة الماكر، وأحد رجال التحويلة جوموزوف الفلاح المتين العريض اللحية الصموت.

وزوجة مدير المحطة جالسة على مصطبة بالقرب من باب المحطة. إنها امرأة صغيرة بدينة تعاني من الحر بشدة. وعلى ركبتيها ينام طفل وجهه ممتلئ وأحمر مثل وجه أمه.

يختفي القطار تحت المنحدر، ويبدو وكأنه اندفن في الأرض.

عندئذ يتكلم مدير المحطة مخاطباً زوجته:

- هل السماور مهيأ، يا سونيا؟

فتجيب سونيا بفتور وخفوت:

- طبعاً.

- لوقا! اكنس السكة والرصيف.. ألا ترى كم رموا من نفايات..

- أعرف يا ماتفي ابجوروفيتش...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نعم، ماذا إذن؟ هل نشرب الشاي، يا نيقولاي بتروفيتش؟

فيقول المساعد:

- حسب المألوف.

وبعد توديع قطار الظهر يسأل ماتفي ايجوروفيتش زوجته:

- هل الغداء جاهز يا سونيا؟

ثم يصدر للوقا الأمر نفسه دائماً، ويدعو المساعد الذي يتناول طعامه عندهم:

- ماذا إذن؟ هل نتغدى؟

فيرد عليه المساعد بتعقل:

- كما هو دائماً...

ويغادرون الرصيف إلى غرفة فيها زهور كثيرة، وأثاث قليل، فيها رائحة مطبخ وأقمطة، وهناك حول المائدة يتحدثون عما مر بهم.

- هل لاحظت، يا نيقولاي بتروفيتش، امرأة سوداء الشعر ترتدي فستاناً أصفر في الدرجة الثانية؟ قطعة سامة!..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيرد المساعد:

- ليست قبيحة، ولكنها سيئة الذوق في اللباس.

وهو دائماً يتحدث باقتضاب وثقة معتبراً نفسه رجلاً عارفاً بالحياة ومتعلماً. وقد أنهى المدرسة الثانوية. وعنده كراسة في قماشة سوداء، يسجل فيها مختلف الأقوال المأثورة للمشاهير يلتقطها من مقالات الصحف الانتقادية ومن الكتب التي تقع في يديه عرضاً.

ومدير المحطة يعترف، دون جدال، برسوخ قدمه في كل ما لا يخص الوظيفة، ويصغي إليه بانتباه. وتروق له، على نحو خاص، الحكم من كراسة نيقولاي بتروفيتش، ويعجب بها دائماً في سذاجة. وتثير ملاحظة المساعد عن لباس المرأة ذات الشعر الأسود سؤالاً لدى ماتفي ايجوروفيتش:

- أحقاً أن الصفرة لا تلائم وجه امرأة ذات شعر أسود؟

ويشرح نيقولاي بتروفيتش، وهو يضع لنفسه مربى من القارورة الزجاجية في صحن بإتقان:

- أنا أقصد الزِّيَّ لا اللون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيوافق مدير المحطة قائلاً:

- الزي شيء آخر!

وتنضم الزوجة إلى الحديث لأن هذا الموضوع قريب إليها ومفهوم منها. ولكن لما كانت عقول هؤلاء الأشخاص قليلة الرفاهية، فإن الحديث يجري ببطء، ونادراً ما يثير مشاعرهم.

من النافذة يلوح السهب وقد لفه الصمت، والسماء مهيبة بهدوئها الرائع.

وكل ساعة تقريباً يظهر قطار بضاعة، إلا أن المستخدمين له معروفون منذ زمن طويل. جميع أولئك المستخدمين أنصاف نعاس يرهقهم السفر المضجر في السهب. إلا أنهم أحياناً يتحدثون عما حدث على الخط الحديدي، سحق شخص على بعد كذا، أو يتحدثون عن أخبار الخدمة، هذا فرضت عليه غرامة، وذاك نُقل.، وهذه الأخبار لا تناقش، بل تُلتهم مثلما يلتهم الشرهون لوناً من الطعام لذيذاً أو نادراً.

تزحف الشمس ببطء في السماء إلى حافة السهب، وعندما توشك أن تمس الأرض تصبح قرمزية. وتعم السهب إضاءة ضاربة إلى حمرة توحي بالشعور الحزين الداعي إلى الابتعاد عن هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفراغ. ثم تمس الشمس الأرض بطرفها، وتغيب بكسل فيها أو وراءها. وتظل موسيقى الألوان الذاهية للغروب المسائى تلعبُ في السماء بهدوء وقتاً طويلاً بعدها، إلا أنها تشحب وتشحب، ويحل الغسق الدافئ الصامت. وتشتعل النجوم، وترتجف وكأنما هي خائفة من الضجر على الأرض.

وفي الغسق يضيق السهب: يزحف ظلام الليل بلا جلبة مطبقاً على المحطة من جميع الجهات. ويهبط الليل أسود جهماً.

توقد الأضواء في المحطة، وأسطعها وأعلى ضوء فيها هو ضوء ملوّحة السكة الحديدية المائل إلى الخضرة. وحوله ظلام وصمت.

وفي بعض الأحيان يدق جرس. إنه استدعاء إلى القطار. ويترامى صوت الجرس العجول في السهب، ويغوص فيه سريعاً.

وبعد الجرس بوقت قصير يخرج من البعيد المظلم ضوء أحمر راكض، ويهتز السكون في السهب من الهدير الأصم للقطار القادم إلى المحطة المنعزلة المحاطة بالظلمة.

تعيش الطبقة السفلى من المجتمع الصغير في المحطة على نحو يختلف بعض الشيء عن الارستقراطية. فالحارس لوقا يصارع دائماً الرغبة في الهروب إلى زوجته وأخيه في القرية التي تبعد سبعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أميال عن المحطة. هناك عنده مزرعة، كما يقول لجوموزوف عامل التحويلة الصموت الرزين، حين يطلب منه أن يقوم بنوبته في المحطة.

ويزفر جوموزوف عميقاً دائماً لدى سماعه كلمة مزرعة ويقول:

- حقًّا، إن المزرعة تتطلب رعاية. هذا صحيح..

- أما عامل التحويلة الآخر أفانسي ياجودكا، الجندي القديم ذو الوجه الأحمر المدور باللحية الخشنة الشيباء، فهو رجل ساخر خبيث لا يصدق لوقا، ويهتف متهلكاً:

- مزرعة! زوجة!.. أنا أعرف معنى ذلك.. هل زوجتك أرملة، أم زوجة لجندي؟

ويهتف لوقا باحتقار:

- آه، يا حاكم الطيور!

إنه يسميه بحاكم الطيور، لأنه كان مولعاً بالطيور كثيراً. وكل (كشكه) سواء من الداخل أو الخارج عبارة عن مشجب للأقفاص والمصائد، وفي الكشك وحوله تتردد طوال اليوم زقزقة الطيور بلا انقطاع. طيور السمان التي اصطادها الجندي تعقعق بصوتها الرتيب دون كلل، والزرازير تزرزر بألفاظها الطويلة والطيور

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصغيرة المختلفة الألوان تزغرد بلا تعب، وتصفر وتغني مبهجة حياة الجندي المستوحدة.

وهو منشغل بها في أوقات فراغه كلها، ويعاملها بلطف ورعاية دون أن يبدي أي اهتمام برفاقه. وهو يسمي لوقا بحية الزرع، وجوموزوف بالفضولي. ولا يتورع عن أن يقول لهما في وجهيهما إنهما «زيرا نساء» وأنه ينبغي ضربهما على ذلك.

ولا يولي لوقا كبير اهتمام بكلماته، ولكن حين ينجح الجندي في إغضابه يشتمه شتماً لاذعاً لمدة طويلة كأن يقول له:

- أنت جرذ رمادي، وذرق جرذان! ماذا تفهم يا طبال ماعز متقاعد؟! قضيت حياتك كلها بمطاردة الضفادع من تحت المدافع، يا فزاعة مزرعة المعسكر.. أي شأن لك بالمحاجة؟ اذهب إلى طيور السمان، يا حاكم الطيور!

بعد أن سمع ياجودكا سباب الحارس لوقا بهدوء، ذهب ليشكوه إلى مدير المحطة، فصرخ هذا عليه بأن لا يشغله بالتفاهات، وطرده. وفي طريق عودته من مكتب مدير المحطة وجد ياجودكا لوقا أمامه، فراح يشتمه لا بحرارة، بل بهدوء وبألفاظ ثقيلة رديئة سرعان ما هرب منها لوقا باصقاً. ورد جوموزوف بزفرات، وبرر بارتباك:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما العمل؟ لا حيلة باليد.. بالطبع إنها عفرتة.. ولكن، على العموم، لا تحكم فلا يحكم عليك...

ذات مرة أجابه الجندي هازئاً:

- تثرثر كطير بلا معرفة ولا معروف. لا تحكم، لا تحكم. إذاً لا حكم ولا محاكمة فأي شيء يبقى للناس ليتحدثوا عنه..

بالإضافة إلى زوجة المدير، كانت في المحطة امرأة أخرى هي الطباخة. وكانت تدعي إرينا، تناهز الأربعين من العمر، وكانت قبيحة جدًا: ضخمة البدن، ذات نهدين متهدلين، وقذرة دائماً، مهلهلة الثياب. وكانت تمشي بخلاعة، تلمع في وجهها عينان ضيقتان مذعورتان محاطتان بغضون. وكان في جسمها الغليظ شيء عبودي ذليل، وكانت شفتاها السميكتان تتكوران دائماً على نحو يوحي بأنها تطلب الصفح من الناس، وتنكب على أقدامهم دون أن تجرؤ على البكاء. لبث جوموزوف في المحطة ثمانية أشهر دون أن يعير التفاتاً إلى أرينا؛ عندما كان يلتقي بها يقول لها: مرحباً. وكانت ترد عليه بنفس التحية ملقية عبارتين أو ثلاثًا، ثم يفترقان، كل إلى غايته. ولكن جوموزوف أقبل ذات مرة على مطبخ مدير المحطة واقترح على إرينا أن تخيط له قمصاناً. وافقت، ولما أتمت خياطة القمصان حملتها إليه بنفسها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقال جوموزوف:

- شكراً ثلاثة قمصان، كل قميص بعشرة (كوبيكات)، يعني يجب أن أعطيك ثلاثين (كوبيكا).. أليس كذلك؟

فأجابت إرينا:

- نعم.. ثلاثين كوبيكا.

- فكر جوموزوف، وصمت طويلاً. وسأل المرأة أخيراً، وكانت طوال الوقت تنظر إلى لحيته:

- من أية ولاية أنت؟

- من ولاية ريازان..

- بعيدة! كيف جئت إلى هنا؟!

- مصادفة .. أنا وحدي.. وحيدة..

- ذلك قد يدفع المرء إلى مكان أبعد.

وزفر جوموزوف، وصمتا وقتاً طويلاً، ثم قال جوموزوف:

- وأنا الآخر من ولاية ينجني نوفجورود. وحيد هنا أيضاً. بينما كانت لي مزرعة، وزوجة أيضاً. وطفلان. ماتت زوجتي بالكوليرا، ومات طفلاي بغيرها. وقد هدّتني النكبة. نعم.. ثم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حاولت أن أنشيء لي عائلة، ولكن بلا جدوى، تفككت الآلة فلا تشتغل. ومِلت جانباً، أعني، عن طريقي.. وها هي السنة الثالثة وأنا أصارع..

- سيء أن لا يكون للإنسان عشة.

- بالطبع!.. هل أنت أرملة؟

- آنسة..

- أهوه، يبدو!

وضحك جوموزوف بسخرية صريحة، فقالت إرينا مؤكدة:

- والله، آنسة.

- ولماذا لم تتزوجي؟

- من يقبلني؟!.. أنا خالية الوفاض.. فما نفعي لأحد.. ثم إنني غير جميلة وجهاً..

- نعم!

غمغم جوموزوف ساهماً، ومسَّد لحيته وأخذ يتطلع إلى وجهها، ثم سأل عن مقدار راتبها، فقالت:

- روبلان ونصف..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هكذا. حسناً.. يعني أنت تريدين مني ثلاثين (كوبيكا)؟

تعالي في المساء، حوالي الساعة العاشرة، وسأعطيها لك، وسنشرب شاياً، ونتحدث قليلاً قتلاً للضجر.. كلانا وحيد.. تعالي!

- سآتي.

قالت ذلك ببساطة، وانصرفت. ثم جاءت في الموعد المحدد، في تمام الساعة العاشرة مساءً، وانصرفت عند الفجر.

ولم يدعها جوموزوف إليه ثانية، ولم يعطها الثلاثين كوبيكا. جاءت إليه بنفسها بلهاء خانعة، جاءت، ووقفت أمامه صامتة. نظر إليها، وهو مضطجع على سريره، وقال وقد تنحى نحو الجدار:

- اجلسي.

ولما جلست قال لها:

- اسمعي، احفظي هذا في سرك حتى لا يعرف به أحد أبداً! وإلا فسأكون في حرج من أمري.. لست أنا شابًّا، وأنت أيضاً. أتفهمين؟

هزت رأسها مصادقة. وحين صحبها مودعاً أعطاها ملابسه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتصلحها وذكّرها ثانية:

- حتى لا يعرف أحد.. مطلقاً!

وهكذا عاشا كاتمين علاقتهما عن الجميع.

كانت إرينا تنسل إليه ليلاً فكانت تزحف زحفاً. وكان يستقبلها بتلطف، وبهيئة صاحب سلطة، وأحياناً يقول لها بصراحة:

- ما أقبح وجهك!

ابتسمت له صامتة ابتسامة شاحبة، وعندما كانت تنصرف منه كانت تحمل معها في كل مرة تقريباً عملاً عهد به إليها.

كانا لا يلتقيان كثيراً. إلا أن جوموزوف في بعض المرات حين التقى بها في المحطة، قال لها بصوت هامس:

- تعالي اليوم..

وجاءت إليه طائعة وقد ارتسم على وجهها المنمّش تعبير جدي وكأنها جاءت لتقوم بواجب صارت تدرك أهميته.

وعندما عادت إلى بيتها كانت لوجهها سحنة التقصير والذعر الكئيبة المألوفة له.

وفي بعض الأحيان كانت، وقد توقفت في زاوية أو وراء شجرة،

telegram: @mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمعن النظر في السهب طويلاً. هناك كان الليل سائداً، وكان في القلب لذع من صمته الجافي.

ذات مرة، بعد توديع قطار المساء، أعدت رئاسة المحطة مجلساً لشرب الشاي في الحديقة المقابلة لنوافذ شقة ماتفي اجيوروفيتش، في ظل أشجار الحور الكثيف... وكانوا غالباً ما يفعلون ذلك في الأيام الحارة – فإن ذلك، على أية حال، تنويع لرتابة حياتهم.

احتسوا الشاي صامتين مستنفدين الانطباعات التي جلبها القطار.

– اليوم أحرُّ من يوم أمس.

قال ماتفي ايجوروفيتش، مقدماً بإحدى يديه قدحه الفارغ إلى زوجته، ماسحاً العرق من جبهته بالأخرى.

وقالت الزوجة، وهي تتناول القدح:

– من الضجر.. يبدو الحر أشد..

– أها أظن ذلك.. في الواقع.. لعب الورق نافع في مثل هذه الحال.. إلا أننا ثلاثة فقط..

هز نيقولاي بتروفيتش كتفيه، وقلّص عينيه ونطق بلفظ واضح:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لعب الورق، حسب تعبير شوبنهاور، إفلاس لكل فكرة.

فقال ماتفي إيجوروفيتش متأثراً:

- بديع.. كيف هذا؟ إفلاس للفكرة.. نعم! من قال هذا؟

- شوبنهاور، ألماني، فيلسوف.

- فيـ.. لسوف؟ أها.

- وماذا يعمل الفلاسفة، يخدمون في الجامعات؟- سألت صوفيا ايفانوفنا مستطلعة.

- كيف أقول لك؟ هذه ليست وظيفة، بل.. يمكن أن يقال.. قابلية طبيعية.. يمكن أن يكون فيلسوفاً.. كل من ولدت معه عادة التفكير والبحث في كل شيء من البداية والنهاية. بالطبع يوجد فلاسفة في الجامعات أيضاً.. ولكن قد يكونون في كل مكان.. حتى في مصلحة السكة الحديدية.

- وهل الذين في الجامعة يحصلون على مرتبات كبيرة؟

- حسب عقلهم.

قال ماتفي ايجوروفيتش في حسرة:

- آه لو يوجد شخص رابع لعبنا قليلاً بمرح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وانقطع الحديث.

القُبّراتُ تغني في السماء الزرقاء، وطيور الحناء تقفز من عش إلى عش في أشجار الحور، وتصفر بخفوت. وفي الغرفة يبكي الطفل.

ويسأل ماتفي ايجوروفيتش:

- هل ارينا هناك؟

فأجابت زوجته:

- بالطبع..

- إرينا هذه فلاحة غريبة الأطوار. أنت تلاحظ ذلك يا نيقولاي بتروفيتش..

- غرابة الأطوار أولى مظاهر الابتذال.

وسأل مدير المحطة بانفعلا:

- كيف؟

وحين يعيد القول المأثور بنطق واضح يقلِّص عينيه بتلذذ، وتقول صوفيا ايفانوفنا بصوت حالم:

- ما أحسن تذكرك لما قرأت.. زما أنا فأقرأ اليوم، ولا أذكر شيئاً في اليوم التالي، حتى ولو تقتلني.. قبل مدة قصيرة قرأت في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مجلة «نيفا» شيئاً طريفاً مسلياً، ولكن ما هو؟ لا أذكر كلمة واحدة!

ويشرح نيقولاي بتروفيتش بإيجاز:

- هذه عادة!

- لا، إنه أحسن من ذلك.. ما اسمه؟

فيقول ماتفي ايجوروفتش مبتسماً:

- شوبنهاور.. يعني أن الجديد سيكون قديماً.

- وبالعكس، إن أحد الشعراء قال: حكمة الحياة مقتصدة، كل ما هو جديد فيها يخاط من القديم.

- أوف، يا لك من شيطان!.. إنه لا يمسك وكأنه يخرج من غربال!

ويضحك ماتفي ايجوروفتش في رضا، وتبتسم زوجته برقة، بينما نيقولاي بتروفيتش راض عن نفسه، ويحاول عاجزاً أن يخفي ذلك.

- من قال عن الابتذال؟

- الشاعر برياتينسكي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- والشيء الآخر؟

- شاعر أيضاً يدعى فوفانوف.

ويقول ماتفي ايجوروفيتش مادحاً الشاعرين:

- ماهران!

وينشد البيت بصوت منغم، وعلى وجهه ابتسامة الفرح.

وكان الضجر يعبث بهم. ما أن يرخي عنهم طوقه الشديد لدقيقة حتى يعود ثانية لتطويقهم. حينئذ يصمتون من جديد، نافخين من الحر الذي زاده الشاي شدة.

والشمس وحدها في السهب. ويتذكر ماتفي ايجوروفيتش:

- نعم، كما بدأت القول عن ارينا. إنها امرأة غريبة. أنظر إليها واندهش. كأنها مسحوقة بشيء، فهي لا تبتسم، ولا تغني، وتتحدث قليلاً.. قرمة شجر. إلا أنها تعمل جيداً، وترعى ليلى وتعتني بالطفل بكل عناية.

إنه يتحدث بخفوت كيلا تسمع إرينا كلامه من خلال النافذة. فهو يعرف أن مدح الخادمة غير جائز إذا أردت تجنب ترفعها وتقاطعه زوجته مقطبة بدلال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كفاك كلاماً.. أنت لا تعرف عنها كل شيء!

ويغني نيقولاي بتروفيتش بصوت خافت منغم، مصاحباً غناءه بنقرات على المائدة بالملعقة:

أنا عبدة في الحب.

ضعيفة

في صراعي معك،

يا عفريتي!

ويبتسم، ثم يقول:

- كيف؟ هي.. كلاكما كاذب!

ويقهقه ماتفي إيجوروفيتش عالياً. ويرتجف خداه، وتتصبب قطرات العرق من جبينه سريعاً. فتوقفه زوجته:

- ليس هذا مضحكاً جدًّا. أولا، عندها طفل. ثانياً، انظري أي خبز هذا الذي خبزته؟ حامض كثيراً ومحروق.. لماذا؟

- نعم. نعم. ليس الخبز على ما يرام في الواقع. إنها بحاجة إلى توبيخ! ولكن يا إلهي.. أنا لم أتوقع هذا! إنها عجينة! أوه، اللعنة! ولكن من هو، لوقا؟ سأجعله أضحوكة، هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشيطان العجوز! أم هو يا جودكا؟ أبو الشفة المحلوقة!

- إنه جوموزوف.. يقول نيقولاي بتروفيتش باقتضاب.

- من؟ ذاك الفلاح الرزين؟ ها؟ لا تقل، لا تكذب.

وتستولي هذه القصة المضحكة للغاية على ماتفي ايجوروفيتش كثيراً. فهو تارة يضحك وعيناه مغرورقتان، وتارة يتحدث جديًّا عن ضرورة تقريع العاشقين بشدة، ثم يتصور المناغاة الرقيقة بينهما، ويضحك من جديد. ويتخطى الحدود أخيراً. عند ذاك يبدي نيقولاي بتروفيتش وجهاً عبوساً، أما صوفيا إيفانوفنا فتوقف زوجها بحدة:

- آه، الشيطانان! وأنا أضحك منهما! هذا طريف.

ولا يتوقف ماتفي ايجوروفتش عن الضحك، في حين يظهر لوقا، ويبلّغ:

- آلة التلجراف تدق..

- أنا قادم. أبلغ عن الثاني والأربعين.

وبعد قليل يذهب مع مساعده إلى المحطة، حيث يدق لوقا الناقوس بقوة للتبليغ. ويجلس نيقولاي بتروفتش إلى الجهاز سائلاً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحطة المجاورة: هل يمكن أن أوجه القطار رقم 42، بينما مديره يذرع الغرفة ويبتسم ويقول:

- دعنا نمزح معهما، الشيطانين.. قتلا للضجر على أية حال.. نضحك ولو قليلاً.

ويوافق نيقولاي بتروفتش، وهو يعمل بمفتاح الجهاز:

- هذا مسموح به!

إنه يعلم أن الفيلسوف يجب أن يتحدث بإيجاز.

أتيحت.

أتيحت لهم فرصة للضحك بعد مدة قصيرة جدًّا.

ذات ليلة جاء جوموزوف إلى إرينا في السرداب الذي هيأت لها فيه، بناء على إيعازه، وبإذن من زوجة مدير المحطة، فراشاً بين الأمتعة البيتية القديمة المختلفة. وكان المكان رطباً وبارداً، اتخذت فيه المقاعد المحطمة والألواح ومختلف الأثاث المستهلك أشكالاً مخيفة في الظلمة. وعندما كانت إرينا وحيدة بينها كان يتملكها فزع شديد حتى لا تكاد تغفو، فكانت طوال الوقت، ، تردد الصلوات التي تعرفها، وهي مطروحة على كومة من القش، وعيناها مفتوحتان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جاء جوموزوف، وداعبها طويلاً. وهو صامت، وعندما تعب غفا. ولكن سرعان ما أيقظته إرينا بصوت مذعور:

- يا تيمو في بتروفيتش! يا تيموفي بتروفيتش!

- فسأل جوموزوف وهو بين النوم واليقظة:

- هوه؟

- أغلقوا علينا..

- كيف؟

- جاؤوا، وأغلقوا.. بالقفل..

همس مذعوراً حانقاً، ودفعها عنه وهو يقفز:

- أنت تكذبين!

فقالت له في خضوع:

- انظر بنفسك.

نهض وتقدم من الباب متعثراً بكل ما في طريقه. وبعد صمت قصير قال عابساً:

- هذا من عمل الجندي..

صدرت من خلف الباب قهقهة جذلى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال جوموزوف بصوت عالٍ:

- افتح!

- ماذا؟ - انبعث صوت الجندي..

- يُقال لك افتح...

- سنفتح في الصباح - قال الجندي ذلك وابتعد.

- عندي خفارة، يا شيطان! - صاح جوموزوف غضبان متوسلاً.

- سأخفر أنا.. اقعد، أعرف ذلك!..

وانصرف الجندي.

وهمس عامل التحويلة في جزع:

- انتظر.. لا يجوز لك حبسي على أية حال.. يوجد مدير.. فماذا ستقول له؟ سيسأل: أين جوموزوف؟ وستجيبه عند ذاك...

- ولكن يبدو أن المدير نفسه أمره بذلك - قالت إرينا بخفوت وبلا أمل. وعاد جوموزوف يسأل مذعوراً:

- المدير؟ وما غايته من ذلك؟- وبعد أن صمت قليلاً صرخ بها: أنت تكذبين!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ردت بتنهيدة ثقيلة؛ في حين سأل عامل التحويلة، وهو يجلس على برميل بالقرب منها:

- ماذا سيكون من ذلك؟.. العار لي كل ذلك منكِ أيتها الشيطانة القبيحة، كل ذلك منك.. أوه!

وقبض يده، وهزها مهدداً في الجهة التي جاءت منها أصوات أنفاسها، بينما اعتصمت هي بالصمت.

أحدقت بهما ظلمة رطبة مشبعة برائحة كرنب مخلل عفن، وشيء آخر حاد يوخز الأنف. ومن خلال خصاص الباب نفذت شرائط من ضوء القمر. ووراء الباب هدر قطار البضائع الخارج من المحطة. وتكلم جوموزوف في حقد وازدراء:

- لماذا أنت صامتة؟.. ماذا سيكون أمري الآن؟ فعلت الأفاعيل وتصمتين؟ فكري، يا شيطانة، ماذا سيحدث؟ أين أُوَلِّي وجهي من العار، أواه، يا ربي، كيف تورطت بامرأة كهذه!

فقالت إرينا بهدوء:

- سأطلب الصفح.

- كيف؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ربما، سيصفحون...

- وماذا يصيبني من ذلك، سيصفحون عنك، ها؟ ألا يبقى العار عليَّ، أم لا؟ ألا يضحكون مني؟

وبعد أن صمت قليلاً، عاد ثانية إلى تقريعها وشتمها. بينما كان الوقت يجري ببطء قاس. وأخيراً توسلت المرأة إليه والرجفة في صوتها:

- سامحني، يا تيموفي بتروفيتش!

فصرخ بها:

- أسامحك بعد أن أكسر رأسك.

وسغاء الصمت مرة أخرى، وكأنه نحس مرهق مملوء بوجع حاد لكلا الشخصين المحبوسين في الظلام.

وهتفت إرينا بحنين:

- يا إلهي، ليت الفجر يضيء قريباً.

- اسكتي، و.. وإلا ألهبت قدميك!

هددها جوموزوف، وعاد من جديد يرميها بوخزات ثقال.

ثم جاء تعذيب السكون والصمت. بينما زادت قسوة الوقت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكثر فأكثر مع دنو الفجر، وكأن كل دقيقة تباطأت في الزوال مستمتعة بوضع هذين الشخصين المضحك.

غفا جوموزوف أخيراً، واستيقظ على صيحة ديك صدرت على مقربة من السرداب. فسأل بصوت أجوف:

- إيه.. يا مشعوذة! هل أنت نائمة؟

فأجابته إرينا بزفرة ثقيلة:

- لا..

فواصل عامل التحويلة كلامه بسخرية:

- لو أخذت غفوة!.. آه، يا للكِ ..

فهتفت إرينا:

- يا تيموفي بتروفيتش، لا تغضب عليَّ! أشفق عليَّ! بحق الرب، أشفق عليَّ! فأنا وحيدة! وأنت لي..

- لا تعوي، لا تجعلي الناس يضحكون منكِ! اصمتي.. إذا لم يمنحك الرب..

وعادا ينتظران بصمت كل دقيقة تالية. إلا أن الدقائق مرت غير حاملة لهما شيئاً. وفي آخر الأمر لمعت أشعة الشمس في خصاص

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الباب، وقطعت ظلمة السرداب بخيوط مضيئة. وبعد قليل صدر وقع أقدام قرب السرداب، اقترب شخص من الباب، ووقف قليلاً، وابتعد.

غمغم جوموزوف:

- معذّبون!

وبصق وعاد الانتظار الصامت المتوتر.

همست أرينا:

- يا إلهي ارحم...

وكأنما كانوا يتسللون إلى السرداب بهدوء .. قفل يخشخش، ويرتفع صوت المدير الصارم:

- جوموزوف! ضع يدك بيد إرينا، واخرجا.. بسرعة!

- فقال جوموزوف بصوت خفيض:

- تعالي أنت!

وجاءت أرينا، وصارت إلى جانبه مطرقة الرأس.

فُتح الباب. وكان مدير المحطة واقفاً أمامه. انحنى وقال:

- أهنؤكما بالزواج الشرعي! تفضلا! .. يا موسيقى، اعزفي!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عبر جوموزوف العتبة، وتوقف مصعوقاً بعاصفة من الضجيج الأهوج. وراء الباب وقف لوقا وباجودكا ونيقولاي بتروفتش.

كان لوقا يدق بيده على جردل، ويصرخ بشيء ما بصوت ماعزي عالٍ، وكان الجندي ينفخ ببوقه، بينما كان نيقولاي بتروفيتش يلوّح بذراعه في الهواء، وقد نفخ خديه، وكوّر شفتيه كالأنبوبة:

- بوم! بوم! بوم بوم بوم!

كان الجردل يخشخش، والبوق يعوي ويزأر، وماتفي ايجوروفيتش يقهقه ممسكاً بخاصرته. كما قهقه مساعده أيضاً لدى رؤية جوموزوف الواقف أمامهم حائراً رمادي الوجه، على شفتيه المرتعشتين ابتسامة خجلة. وقد وقفت وراءه إرينا بلا حراك وكأنها تحجرت، مطبقة برأسها على صدرها.

«قالت إرينا لتيموفي

كلمات حلوة...»

غنى لوقا هراء، وحرّك صفحة وجهه لجوموزوف حركات منفرة. بينما تقدم الجندي من جوموزوف وجعل البوق قرب أذنه، ونفخ ونفخ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- تعالا.. خذها من يدها!

صرخ مدير المحطة وقد تقطعت أنفاسه من الضحك. كانت زوجته جالسة في الرواق تميل من جانب إلى آخر، زاعقة بصوت مزعج:

- ماتفي.. كفى!.. آه، سأموت!..

«مقابل لحظة اللقاء

أعاني الشقاء!».

غنى نيقولاي بتروفيتش تحت أنف جوموزوف تماماً.

- مرحى للعروسين!

هتف ماتفي ايجوروفيتش حين خطا جوموزوف إلى الأمام. وردد الأربعة «مرحى» في وقت واحد، وكان هتاف الجندي زئيراً عالياً.

سارت إرينا وراء جوموزوف، بعد أن رفعت رأسها، وأفرجت شفتيها، وأسبلت ذراعيها على جنبيها. كانت عيناها تنظران إلى الأمام ببلاهة، ولكن لا تكاد ترى شيئاً.

- ماتفي.. اطلب منهما أن يتبادلا القبل.. ها ها ها!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما ماتفي ايجوروفيتش فقد اتكأ على شجرة لأنه لم يستطع أن يثبت على قدميه من شدة الضحك.. بينما ظل الجردل يدق، والبوق يعوي ويزأر ويزعج، وغنى لوقا راقصاً:

«وإرينا الحميدة

طبخت لنا عصيدة!».

وكوّر نيقولاي بتروفيتش شفتيه ثانية:

بوم – بوم = بوم! تراتاتا! بوم! بوم اترارارا!

وصل جوموزوف إلى باب العنبر واختفى فيه، بينما بقيت إرينا عند الباب محاطة بأناس مزمجرين. زعقوا، وقهقهوا، وصفروا في أذنيها، وقفزوا حولها في نوبة من المرح المجنون.

وقفت هي أمامهم بوجه جامد، شعثاء الشعر، قذرة، بائسة، ومضحكة.

– فر العريس، وبقيت هي!

صاح ماتفي ايجوروفتش على زوجته مشيراً إلى إرينا، وتلوى من الضحك مرة أخرى.

أدارت إرينا له رأسها، وسارت مارة بالعنبر، إلى السهب مشيَّعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالصفير والصياح والضحك.

وصاحت صوفيا ايفانوفنا:

- كفاية! توقفوا!.. دعوها تفيق لنفسها، يجب إعداد الغداء.

ابتعدت إرينا في السهب، إلى حيث امتد شريط أجعد من القمح وراء خط المرور. سارت ببطء، مثل إنسان مستغرق في تفكير عميق.

- كيف؟! كيف؟!

سأل ماتفي ايجوروفتش المشتركين في هذه اللعبة، المتبادلين فيما بينهم تفاصيل دقيقة مختلفة عن سلوك العروسين.

وضج الجميع بالضحك. بل إن نيقولاي بتروفيتش وجد الوقت والمكان ليقول حكمة صغيرة:

لا جريرة في الضحك

ممن يدون مضحكين!

قالها لصوفيا ايفانوفنا، وأضاف:

ولكن الضحك الكثير مضر!

في ذلك اليوم ضحكوا كثيراً في المحطة، إلا أنهم لم يأكلوا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جيداً، لأن إرينا لم تأت لتطبخ، فأعدت زوجة مدير المحطة الغداء بنفسها. لكن الغداء السيء لم يقلل من المرح. ولم يخرج جوموزوف من العنبر حتى موعد خفارته، وحين خرج استدعوه إلى مكتب المدير، وهناك أخذ نيقولاي بتروفتش يسأله، وسط ضحك ماتفي ايجوروفيتش ولوقا، كيف سحر حسناءه. وقال نيقولاي بتروفيتش للمدير:

- إنه، من حيث الغرابة، الخطيئة رقم (1).

- إنها الخطيئة.

قال عامل التحويلة الرزين مبتسماً ابتسامة جهماء. وقد أدرك أنه إذا قدر على التحدث عن إرينا مستهزئاً بها، فسيقل ضحكهم منه. وبدأ يتحدث:

- في البداية ظلت تغمز لي دائماً.

- تغمز؟ ها ها ها! تصور فقط يا ينيقولاي بتروفيتش، كيف يمكن أن تغمز له تلك المرأة الشهواء؟ فتنة!

- كانت تغمز، فأرى ذلك وأقول في سرى هيهات لك!

وفيما بعد تقول لي: أريد أن أخيط لك قمصاناً!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لكن القوة لم تكن في الخياطة!.

- لاحظ نيقولاي بتروفيتش ذلك، شرح للمدير: هذا بيت لنيكراسوف من قصيدة «أنيقة ورزينة».. تابع يا تيموفي!

وتابع تيموفي كلامه، في باديء الأمر كارهاً نفسه على الكلام، وفيما بعد حفّزه الكذب رويداً رويداً، إذ رأي في الكذب فائدة لنفسه.

أما تلك التي تكلم عنها، فكانت في ذلك الوقت مستلقية في السهب. توغلت عميقاً في بحر القمح، وارتمت ثقيلة على الأرض، ورقدت هناك وقتاً طويلاً بلا حراك. وحين لذعت الشمس ظهرها لدرجة لم تقو بعدها على تحمل أشعتها المحرقة، استلقت على ظهرها حاجبة وجهها بيديها حتي لا ترى السماء الصافية للغاية، والشمس الساطعة جدًّا في عليائها.

حفت سنابل القمح حفيفاً جافًّا حول المرأة المسحوقة بالعار، وصرَّت الجنادب الكثيرة قلقة مضطربة. وكان الجو حارًّا. حاولت أن تتذكر صلوات، فلم تقدر: كانت تدور أمام عينيها وجوه ضاحكة، ويرن في أذنيها صوت لوقا العالي، وعواء البرق، والقهقهات. ومن هذا أو من شدة الحر شعرت بضيق في صدرها،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وها هي قد فكت أزرار صدريتها، وكشفت جسمها لأشعة الشمس متوقعة أن يخفف ذلك تنفسها. وفي الوقت الذي كانت الشمس تحرق جلدها نشب في داخل صدرها إحساس كالحرقة. وبين الحين والآخر كانت تهمس ثقيلة الأنفاس:

- يا إلهي!.. ارحمني.

فيرد عليها حفيف السنابل الجاف، وصرير الجنادب. وحين رفعت رأسها فوق أمواج سنابل القمح رأت لونها الذهبي، كما رأت مدخنة مضخة الماء السوداء البارزة بعيداً عن المحطة في المنخفض، وسطوح مباني المحطة. وما من شيء آخر في السهل الأصفر الشاسع المغطى بقبة السماء الزرقاء، وبدا لإرينا أنها وحدها على الأرض، ترقد في القلب منها، وما من أحد سيأتي أبداً ليقاسمها وطأة وحدتها - ما من أحد أبداً...

وسمعت صيحات:

- ارينا! ارينا! الشيطانة!..

كان صوت لوقا، وصوت الجندي. وكانت تود لو تسمع صوتاً ثالثاً، ولكن لم يناديها. عندئذ بكت بدموع غزيرة جرت مسرعة من خديها المنمشين إلى صدرها. بكت وراحت تحك صدرها العاري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالأرض الجافة الحارة لكي تكتم تلك الحرقة التي كانت تعذبها أكثر فأكثر. بكت ثم صمتت كاتمة أنينها وكأنها تخاف أن يسمعها أحد، ويمنعها من البكاء.

وفيما بعد، حين جَنَّ الليل نهضت، وسارت إلى المحطة بتثاقل. وعندما وصلت إلى أبنية المحطة اتكأت بظهرها على حائط السرداب، ووقفت هنا طويلاً، محدقة في السهب.

ظهرت قطارات البضائع واختفت. وسمعت كيف حكى الجندي للمستخدمين المرافقين للقطارات عن عارها، فضحكوا.

وسرى الضحك بعيداً في السهب المقفر، حيث كانت أرانب السهب تصفر صفيراً لا يكاد يسمع.

- إلهي! ارحمني..

تنهدت المرأة ضاغطة ظهرها على الجدار بقوة. إلا أن تلك التنهدات لم تخفف من الوقر الجاثم على قلبها.

قُبيل الصبح صعدت بحذر إلى غرفة السطح في بناية المحطة، وهناك شنقت نفسها بعد أن صنعت أُنشوطة من الحبل الذي كانت تنشر عليه الغسيل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعد يومين وجدوا جثة إرينا من رائحتها. في بادئ الأمر ارتعبوا جميعاً، ثم أخذوا يتناقشون، من المذنب في الأمر؟

أثبت نيقولاي بتروفيتش بشكل لا يدحض أن جوموزوف هو المذنب. عند ذاك جز المدير جوموزوف على أسنانه، وأمره بالسكوت مهدداً.

وجاءت السلطات، وقامت بالتحقيق، وتبين أن إرينا كانت تعاني من السوداوية.. وأوعز إلى عمال الطرق بحملها إلى السهب، ودفنها هناك، وحين أنجز ذلك ساد النظام والهدوء المحطة ثانية.

وعاد أهلوها يعيشون أربع دقائق في اليوم يسقمهم الضجر والخواء، والتبطل والحر، يراقبون بحسد القطارات المارة بهم خطفاً.

.. في الشتاء، حين تعربد العواصف الثلجية في السهب معولة مزمجرة راشة المحطة الصغيرة بثلج وأصوات وحشية – يعيش أهل المحطة في ضجر أشد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفهرس

تقديم 5

- ماكاراشودرا 9
- كلوشا 43
- مولد إنسان 55
- العجوز ايزرجيل 81
- قتلاً للضجر 127

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

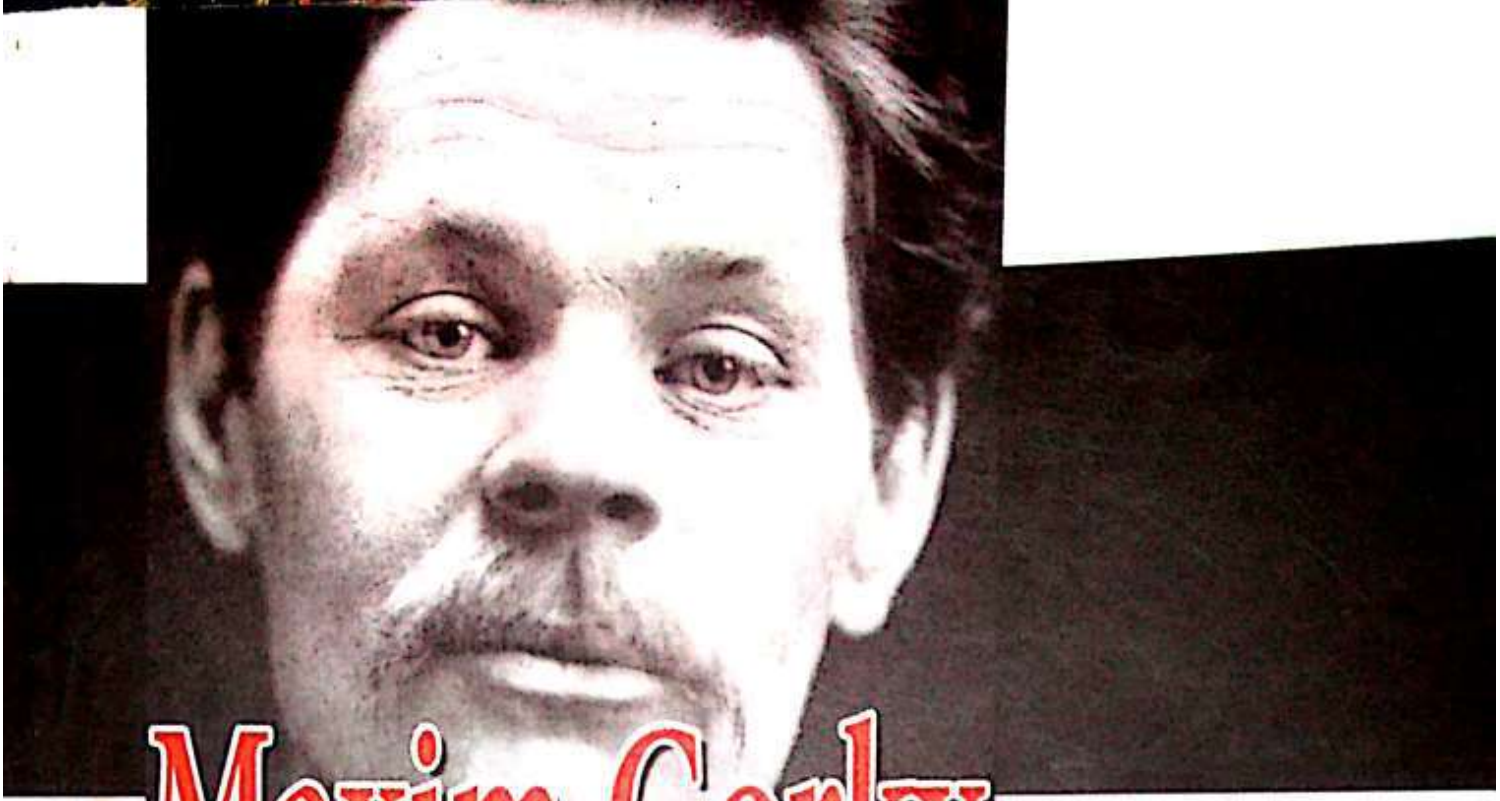

Maxim Gorky

للمزيد من الكتب
الحصرية/
telegram:
@mbooks90

مولد إنسان هي رائعة الكاتب الروسي مكسيم جوركي الروسي الأصل، المولود سنة ١٨٦٨ والمتوفى سنة ١٩٣٨ بعد أن ترك لنا نحو ثلاثين مجلداً ضخماً من الروايات والقصص القصيرة والتراجم والمسرحيات.

وهو صاحب الرواية الشهيرة: الأم.

يعتبره النقاد أحد رواد مدرسة الواقعية في الفن، وأحد أعلام فن القصة القصيرة، التي نقدم للقارئ في هذا الكتاب خمساً منها هي : مكارا شودرا، كلوشا، العجوز ايزرجيل، قتلا للضجر. إضافة إلى (مولد إنسان)

تم الرفع بواسطة
Marwa

I.S.B.N. 978-977-376-846-7
6 445826 997228

AL WALID

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner